المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

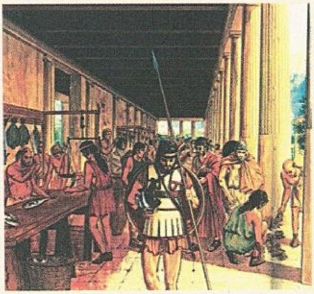

يوهان ڤولفجانج جوته

تاسو

ترجمة وتقديم : عبدالغفار مكاوى

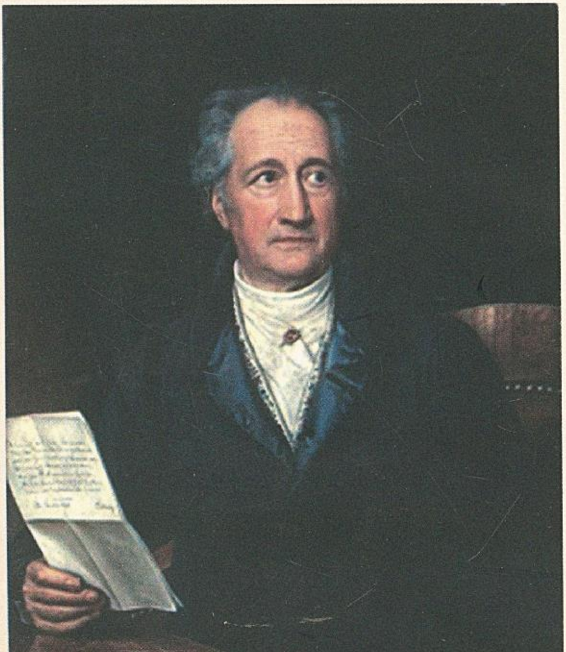

1358

روائع الدراما العالمية

كلاسيكيات الدراما العالمية

تاسو

تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته

ترجمة وتقديم : عبد الغفار مكاوى

٢٠٠٩

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة روائع الدراما العالمية
(كلاسيكيات الدراما العالمية)
المشرف على السلسلة : أحمد سخسوخ

- العدد : ١٣٥٨
- تاسو
- يوهان ڤولفجانج جوته
- عبد الغفار مكاوى
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة مسرحية :

Torquato Tasso

Von Johann Wolfgang Goethe

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوته ، يوهان ڤولفجانج ، ١٧٤٩ - ١٨٣٣
تاسو / تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته ؛ ترجمة وتقديم :
عبد الغفار مكاوى
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٢٤٤ ص ، ٢٤ سم
١ - المسرحيات الألمانية
(أ) مكاوى ، عبد الغفار (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٣٢

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٧١٠٥
الترقيم الدولى 6-114-479 -977- 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

لوحة بحياة جوته وعصره

١٧٤٨ (٢٠ - ٨) : المستشار القيصرى ، يوهان كاسبار جوته يتزوج فى سن الثامنة والثلاثين فى مدينة فرانكفورت على نهر الماين من كاتارينا إليزابيث تكستور .

١٧٤٩ (٢٨ - ٨) : يوهان ڤولفجانج جوته يولد فى فرانكفورت ، أكبر المدن الألمانية بعد برلين وهامبورج ومن أهم مراكز التجارة فيها .

١٧٥٠ : ولادة شقيقته كورنيليا (ماتت فى سنة ١٧٧٠) . وفاة الموسيقى العظيم «يوهان سباستيان باخ» (ولد فى سنة ١٦٨٥) .
الكاتب والفيلسوف الفرنسى الكبير «فولتير» (١٦٩٤ - ١٧٧٨) يزور برلين .

١٧٥١ : بدء ظهور **الإنسيكلوپيديا** الفرنسية بإشراف «ديدرو» (١٧١٣ - ١٧٨٤) و «دلامبير» (١٧١٧ - ١٧٨٣) .

١٧٥٥ : ميلاد «فيليب زايدل» ، سكرتير جوته وصديقه الوفى (مات سنة ١٨٢٠) . وفاة الكاتب والفيلسوف الفرنسى «مونتسكيو» (ولد ١٦٨٩) .
«مس سارا سامبسون» أول تراجيديا برجوازية ألمانية «لليسنج» تمثل على المسرح لأول مرة .

١٧٥٦ : جوته يكتب أولى قصائد شبابه .
نشوب حرب السنوات السبع (التى استمرت حتى سنة ١٧٦٣) بين «فريدريش الثانى» ملك بروسيا وبين النمسا وفرنسا وروسيا والسويد والدولة الألمانية .
المعرض الصناعى الأول يقام فى لندن . إعدام فتاة صغيرة فى لاندزهوت (بافاريا) لاتهامها بمراهنة الشيطان ، وهى آخر ضحايا إحراق السحرة على يد المسيحيين المتعصبين .
١٧٥٧ : ميلاد «كارل أوجست» أمير فيمار وصديق جوته وراعيه (مات فى سنة ١٨٢٨) . بداية الاستعمار الإنجليزى للهند .
١٧٥٩ (١٠ - ١١) : ميلاد الشاعر الكبير «فريدريش شيلر» (فى مدينة مارباخ بمقاطعة فيرتمبورج) صديق جوته الحميم وزميله فى الكفاح لتأسيس الأدب الألمانى الجديد (مات سنة ١٨٠٥) .
وفاة الموسيقار الكبير «هاندل» . ظهور **الرسائل الأدبية** «لليسّنج»، **وكانديد أو التفاؤل لفولتير** .
١٧٦١ : ظهور رواية **(هيلويز الجديدة)** «لجان جاك روسو» .
١٧٦٢ : ظهور ترجمة «فيلاند» (١٧٣٣ - ١٨١٣) النثرية لمسرحيات شكسبير ، التى تتم فى سنة ١٧٦٦م .
ظهور **«إميل» و «العقد الاجتماعى»** لروسو .
تمثيل أوبرا **«أورفيوس وأوريديكه»** لجلوك (٧١٤ - ١٧٨٧) لأول مرة .
١٧٦٣ : السيادة البريطانية على أمريكا الشمالية .

«جيمزوات» الإنجليزى يخترع الآلة البخارية ، كما يخترع النساج الإنجليزى «جيمز هارجريفز» آلة الغزل اليدوية. معرض الكتب الأول فى «ليبزج» .

(١٧٦٥ - ١٧٦٨) : جرته يدرس فى جامعة «ليبزج» . صداقته لـ «بيريش» ولـ «كاتشن شون كويف» ، ومشاهدته للعرض الأول لمسرحية ليسنج **«مينافون بارنهيلم»** . يكتب مسرحية الرعوية الصغيرة نزوج العاشق .

١٧٦٥ : ظهور كتاب «ليسنج» المهم فى تاريخ النقد الأدبى **«لا أوكون أو الحدود بين الرسم والشعر»** .

وفاة «جوتشيد» ، وهو من أهم كُتَّاب عصر التنوير فى ألمانيا وأكبر النقاد الداعين إلى ربط الأدب الإنجليزى بالأدب الفرنسى والاقتداء به .

١٧٦٨ : مرض «جوته» وعودته إلى «فرانكفورت» .

قراءة مستفيضة للأديبين الألمانيين المعاصرين له «فيلاند» و«كلوبشتوك» ولـ «شكسبير» وفيلسوف عصر النهضة وطبيبها وعالمها المشهور «باراسيلزوس» . عالم الآثار ومؤرخ الفن «فنكلمان» ، أحد رواد الحركة الأدبية الكلاسيكية . يموت مقتولاً فى تريستا . حزن جوته عليه .

ظهور كتاب الفيلسوف العالم المؤرخ «هيردر» - صديق جوته وصاحب الأفضال عليه فى شبابه - **مذكرات رحلتى فى سنة ١٧٦٩ من ريجا إلى نانتس** الذى يعلن قيام الحركة الأدبية المعروفة بحركة العاصفة والاندفاع .

(١٧٧٠ - ١٧٧١) : جوته يواصل دراسة القانون فى «شتراسبورج» ويحصل على «الليسانس» . يتعرف على «هيردر» و «لنس» (من أهم أدباء حركة العاصفة والاندفاع) . يتأثر بمشاهدته لكاتدرائية المدينة (المونستر) . حبه لـ «فردريكه بريون» ابنة قسيس «زيزنهيم».

١٧٧٠ : «ليسنج» يذهب إلى مدينة «فولفنبوتل»، حيث يعمل أمينًا لمكتبتها .

١٧٧١ : «جوته» يعود إلى «فرانكفورت» ويلقى خطبته المشهورة فى الاحتفال بذكرى «شكسبير» التى يقول فيها إن الشاعر الإنجليزى الأكبر هو الذى أيقظه من سباته وإنه بدأ حياته الأدبية بعد قراءته له - يكتب مسرحيته **جوتزفون برلشنجن** فى صورتها الأولى .

ظهور مسرحية **إميليا جالوتى** لـ «ليسنج» .

١٧٧٢ : يذهب فى شهر مايو إلى «فتسلار» ليتدرب على أعمال المحاماة ويقع فى غرام «شارلوته بوف» التى كانت مخطوبة فى ذلك الحين . يعود فى شهر سبتمبر إلى «فرانكفورت» ويسمع بخبر انتحار العاشق اليائس «جيروزاليم» الذى سيدفعه إلى كتابه **«فرتر»** .

تأليف اتحاد من المعجبين بالشاعر الكبير «كلويشتوك» من طلبة جامعة «جوتنجن» وأدبائها ينادى بمحاربة الذوق الفرنسى وتجديد الأدب الألمانى .

١٧٧٣ : ظهور مسرحية **«جوتزفون برلشنجن»** التى تلفت إليه الأنظار .

ظهور مقاله عن «فن البناء الألمانى» وبداية العمل فى الكتابة

الأولى من **«فاوست»** وهي المعروفة بـ «بفاوست الأولى» أو «أصل فاوست» .

«لنس» ينشر مسرحيته **«المعلم»** .

١٧٧٤ : يتعرف على فيلسوف الأديان «لافاتر» (١٧٤١ - ١٨٠١) الذى سيصبح من أعز أصدقائه ، وعلى «كارل أوجوست» الذى سيصبح أميرًا لـ «فيمار» وراعيًا وصديقًا لـ «جوته» .

ظهور مسرحية **«كلافيجو»** ورواية **«أحزان فرتر»** ونجاحهما نجاحًا هائلا فى داخل البلاد وخارجها .

«كلويشتوك» (١٧٢٤ - ١٨٠٣) يتم ملحمته الشعرية الكبرى **«المسياس»** .

١٧٧٥ : حبه لـ «ليلى شونمان» - رحلته الأولى إلى سويسرا . ينتهى من مسرحية «ستلا» ويبدأ فى «إجمونت» .

«كارل أوجوست» يتولى إمارة فيمار .

بداية حرب الاستقلال الأمريكية التى ستستمر إلى عام ١٧٨٣ - دون مقاطعة «هسن» فى ألمانيا يبيع للإنجليز ١٢٨٠٠ من رعاياه للاشتراك فى الحرب الدائرة فى شمال أمريكا .

١٧٧٥ (١٠ - ٣) : «جوته» يسافر إلى فيمار . صداقته لـ «كارل أوجوست» . توجيه الدعوة إلى «هيردر» .

١٧٧٦ : حبه لـ «شارلوته فون شتاين» .

كتابه مسرحيته القصيرة **«الأخوان»** . وصول هيردر .

بداية الصناعة البخارية فى إنجلترا .

الولايات الأمريكية الثلاث عشرة تعلن استقلالها عن إنجلترا .

«كلينجر» (١٧٥٢ - ١٨٣١) ينشر مسرحيته **«العاصفة والاندفاع»** التي سميت الحركة الأدبية المعروفة باسمها .

١٧٧٧ : وفاة شقيقته «كورنيليا» . رحلته إلى منطقة جبال الهارس .

بداية العمل في روايته الكبرى **«فيلهلم ميستر»** .

١٧٧٨ : سفره إلى برلين . ظهور أشعار جوتفريد أوجوست بورجر التي تلقى هجوماً شديداً من شيلر . ظهور مسرحية «ليسنج» **«ناتان الحكيم»** .

١٧٧٩ : يعين مستشاراً، يبدأ في كتابة مسرحيته «إفجينيا»، ويقوم برحلته الثانية إلى سويسرا، كما يبدأ في كتابة مسرحيته **«تاسو»** .

١٧٨٠ : ينغمس في دراسة العلوم الطبيعية والتشريح والعظام . وفاة «ليسنج» . ظهور كتاب «كانت» (١٧٢٤ - ١٨٠٤) . **نقد العقل** الخالص ، وترجمة «فوس» (١٧٥١ - ١٨٢٦) **للأويسة** .

١٧٨١ : يرقى إلى طبقة النبلاء . وفاة أبيه . عرض مسرحية «شيلر» الأولى **«اللصوص»** على مسرح مدينة «مانهايم» وهروبه إليها من «شتوتجارت» .

١٧٨٤ : يكتشف عظمة الفكين في الإنسان .

١٧٨٥ : تركيب أول آلة بخارية في ألمانيا . زيارة جوته لـ «كارلزباد» وتوقيعه عقداً لنشر أعماله الكاملة .

١٧٨٦ : يقوم برحلته المشهورة إلى إيطاليا .

١٧٨٧ : ظهور **«إفيجينيا»** .

١٧٨٨ : العـودة إلـى فيمـار . الانتهـاء من مسرحيـة **أجمونت** . حبه لـ «لكرستينه فولبيوس» ، وكانت عاملة بسيطة فى أحد مصانع الزهور ، وحياته معها . آخر حوادث حرف الملحدين فى إسبانيا .

١٧٨٩ : ميلاد ابنه الوحيد «أوجست» (مات سنة ١٨٣٠). كتابة قصائده «مراثى روما» والانتهاء من مسرحية «تاسو» . التعرف على الفيلسوف والعالم اللغوى الإنسانى الكبير «فلهلم فون همبولت» (١٧٦٧ - ١٨٣٥) . اندلاع الثورة الفرنسية (الهجوم على سجن الباستيل فى ١٤ من يولية) وإعلان حقوق الإنسان . إعلان دستور الولايات المتحدة وتعيين «جورج واشنجطون» أول رئيس لها (١٧٣٢ - ١٧٩٩) .

اختراع القسيس الإنجليزى «كارتريت» المغزل الميكانيكى. أزمة الصناعات اليدوية .

١٧٩٠ : رحلة جوته الثانية إلى إيطاليا . دراسات فى البصريات . ظهور الجزء الذى تم من فاوست . وفاة «آدم سميث» ، أكبر الاقتصاديين الكلاسيكيين فى إنجلترا .

(١٧٩١ - ١٨١٦) : «جوته» يشرف على مسرح بلاط فيمار ، ويسهم فى التمثيل وتدريب الممثلين واختيار النصوص . وفاة «كريستيان دانييل فريدريش شوبارت» أحد شعراء حركة العاصفة والاندفاع، ومن أهم المكافحين فى سبيل العدالة والديمقراطية . عرض أوبرا **«الناى السحرى»** لـ «موزارت» (١٧٥٦ - ١٧٩١) لأول مرة على المسرح ، وقد أحبها جوته وأعجب بها كثيراً .

(١٧٩٢ – ١٧٩٣) : كتابة الملحمة الشعرية **«رينيكه فوكس»** على لسان الحيوان .

١٧٩٢ : إعلان الجمهورية فى فرنسا وتشكيل الجمعية الوطنية .

شيلر وكلويشتوك مواطنًا شرف للجمهورية الفرنسية .

١٧٩٣ : ميلاد «يوهان بيتر اكرمان» المشهور بأحاديثه الرائعة مع جوته . إعدام «لويس السادس عشر» فى فرنسا ، واستيلاء اليعاقبة على السلطة . ثورة عمال الغزل فى إنجلترا .

١٧٩٤ : الحديث الأول بين جوته وشيلر وبداية الصداقة والمراسلات المهمة بينهما . نهاية دكتاتورية اليعاقبة فى فرنسا، وبداية الحركات المضادة للثورة .

(١٧٩٥ – ١٧٩٧) : شيلر يصدر مجلة «الهورن» التى يشارك جوته بالتحرير فيها .

ظهور رواية **فيلهلم ميستر – سنوات التعلم** .

نشر **«الأكزين»** وهى مقطوعات شعرية تهكمية على رجال العصر بالاشتراك مع شيلر . ظهور كتاب **«كانت»** عن السلام الدائم .

ورسائل «شيلر» عن التربية الجمالية للإنسان .

١٧٩٧ : يكتب قصائده القصصية **البالادز** . ويصدر ملحمته الشعرية **هرمان ودوروثيا** . ويقوم برحلته الثالثة إلى سويسرا . ظهور رواية «هولدرلين» (١٧٧٠ – ١٨٤٣) **هيبريون أو الناسك فى بلاد الإغريق** .

(١٧٩٨ – ١٧٩٩) : بداية مراسلاته مع «تسلتر» . «نابليون» يقوم بانقلاب فى فرنسا .

(١٧٩٨ – ١٨٠٠) : انشغال «جوته» ببحوثه فى نظرية الألوان ومشاركته فى تحرير **البروبيلان** . عرض ثلاثية «شيلر» المسرحية الكبرى **فالنشتين** .

«أوجست فيلهلم شليجل» ، (١٧٦٧ - ١٨٤٥) وشقيقه «فريدريش شليجل» (١٧٧٢ - ١٨٢٩) يصدران مجلة **أثينايوم** التى ستنطق بلسان الحركة الرومانتيكية المبكرة .

١٨٠٠ : «نوفاليس» (١٧٧٢ - ١٨٠١) ينشر فيها **«أناشيد إلى الليل»** ، بعد وفاة خطيبته . ظهور رواية جان باول (١٧٦٣ - ١٨٢٥) **تيتان** .

١٨٠٢ : ظهور مسرحية جوته **«الابنة الطبيعية»** .

١٨٠٤ : «نابليون» يتوج نفسه إمبراطوراً . وفاة «شيلر» في «فيمار» في اليوم التاسع من مايو . نابليون يهزم جيوش النمسا وروسيا فى «أوسترلتز» ، و «نيلسون» يهزم الأسطول الفرنسى فى «الطرف الأغر» .

١٨٠٦ : الانتهاء من القسم الأول من **فاوست وظهورها** فى سنة ١٨٠٨م . القوات الفرنسية تحتل فيمار وتنهبها . جوته يتزوج رسمياً من «كريستينه فولبيوس» فى ١٩ من أكتوبر بعد موقفها الشجاع فى الدفاع عنه من اعتداء الفرنسيين . جوته يتابع دراسة نظريته فى الألوان وينصرف إلى أبحاثه فى الجيولوجيا والمورفولوجيا . «لودفيج أرنيم» (١٧٨١ - ١٨٣١) و «كليمنس برنتانو» (١٧٧٨ - ١٨٤٢) يصدران مجموعة من الأغانى الشعبية الألمانية بعنوان **بوق الصبى المسحور** ويهديان الجزء الأول منها إلى جوته . انهيار بروسيا بعد هزيمتها فى معركتى «بينا» و «أورشتيت» . الفرنسيون يحتلون «برلين» . نهاية «الدولة الرومانية المقدسة للأمة

الألمانية» وخلع «فرانز الثانى» تاج الإمبراطورية . تكوين اتحاد الراين تحت وصاية «نابليون» لفرض حصار أوروبى على البضائع الإنجليزية .

(١٨٠٧ – ١٨٠٨) : جوته يحب «ميناهيرسليب» . «هيجل» (١٧٥٥ – ١٨٣١) يصدر كتابه **ظاهريات الروح** .

١٨٠٨ : وفاة والدة جوته . يقابل نابليون فى الثانى من أكتوبر. ظهور مسرحية **باندورا** . مسرحية «كلايست» (١٧٧٧ – ١٨١١) . **الجرة المهشمة** تعرض على مسرح فيمار تحت إشراف جوته . ثورة الشعب الإسبانى ضد نابليون . ظهور خطابات «فشته» (١٧٦٢ – ١٨٠٤) إلى الأمة الألمانية .

١٨٠٩ : جوته ينتهى من روايته **الأنساب المختارة** .

١٨١٠ : صدور نظرية الألوان . تأسيس جامعة برلين .

(١٨١١ – ١٨١٢) : ظهور الجزءين الأول والثانى من مذكرات حياة جوته «**من حياتى، شعر وحقيقة**» .

١٨١٢ : فى «كارلزباد» و «تيليتس» . مقابلته لـ «بيتهوفن» . حملة «نابليون» على روسيا وهزيمته . الأخوان «يعقوب» و «فيلهلم جريم» يصدران مجموعة حكايات الأطفال الشعبية التى قاما بجمعها من مختلف البلاد الألمانية.

١٨١٣ : الثورة الألمانية ضد «نابليون» . هزيمته فى معركة «الشعوب» قريباً من «ليبزج» ، وحل اتحاد الراين .

١٨١٤ : يواصل العمل فى الجزءين الثالث والرابع من ذكريات حياته ويكتب أولى **قصائد الديوان الشرقى** . بداية مؤتمر «فيينا» الذى يحتفل بالانتصار على نابليون ويعده انتصارًا على الثورة الفرنسية . عودة أسرة «البوربون» (لويس الثامن عشر) إلى الحكم فى فرنسا ومحاكم التفتيش فى إسبانيا .

(١٨١٤ - ١٨١٥) : رحلات على نهرى الراين والماين . حب «ماريانه فيليمر» . **الديوان الشرقى للمؤلف الغربى** .

١٨١٥ : ظهور رواية «أيشندورف» (١٧٨٨ - ١٨٥٧) الإحساس والحاضر . عودة نابليون من منفاه فى جزيرة ألبا وهزيمته ونفيه إلى «سانت هيلينه» . تأسيس الاتحاد الألمانى من ٢٤ مملكة مستقلة وأربع مدن حرة. حكام روسيا والنمسا وبروسيا يؤسسون «الحلف المقدس» والهدف منه الضغط على كل الثورات الشعبية .

١٨١٦ : وفاة زوجته «كريستينا» .

١٨١٧ : زواج ابنه «أوجست» . يعتزل الإشراف على المسرح . يترجم بعض أجزاء من مسرحية **مانفريد** للورد «بيرون» (١٧٨٨ - ١٨٢٤) .

١٨١٨ : منع تمثيل مسرحيته **أجمونت** فى برلين .

١٨١٩ : ظهور **الديوان الشرقى للمؤلف الغربى** ، ثمرة عشرة طويلة مع شعر «حافظ الشيرازى» وعالم الشرق والإسلام .

١٨٢٠ : وفاة سكرتيره «فيليب زايدل» .

١٨٢١ : العمل فى الجزءين الأول والثانى من رواية **فيلهلم ميستر ، سنوات التجوال** .

١٨٢٣ : رحلته إلى مارينباد وحبه لـ «أولريكه فون ليفيتسوف» .

١٨٢١ : وفاة نابليون فى منفاه فى «سانت هيلانه» .

١٨٢٣ : يكتب **مرثاة مارينباد** . السيمفونية التاسعة لـ «بيتهوفن» .

١٨٢٥ : العمل فى القسم الثانى من **فاوست** . يتلقى من «فرانز شوبرت» «١٧٩٧ - ١٨٢٨) الألحان التى وضعها لبعض قصائده .

١٨٢٧ : بدء ظهور طبعة أعماله الكاملة فى أربعين جزءًا . وفاة حبيبته القديمة «شارلوته فون شتاين» . ظهور ديوان الشاعر «هينى» **كتاب الأغانى** .

١٨٢٨ : نشر رسائله مع «شيلر» . وفاة الأمير «كارل أوجست» .

١٨٢٩ : ظهور **فيلهلم ميستر ، سنوات التجوال** ، والجزء الثالث من رحلته الإيطالية . قراءته لمذكرات «سان سيمون» أحد الاشتراكيين الفرنسيين المثاليين .

١٨٣٠ : وفاة ابنه «أوجست» . الشاعر البولندى الكبير «مكيفيتش» (١٧٨٩ - ١٨٥٥) يزوره فى فيمار .

١٨٣١ : يتم القسم الثانى من **فاوست**، والجزء الرابع من **شعر وحقيقة** . «ستندال» ينشر روايته **الأحمر والأسود** .

١٨٣٢ : بداية مرضه الأخير ووفاته فى صباح اليوم الثانى والعشرين من شهر مارس .

* * *

مُقـــدّمة المتَرجم

لم يكن جوته من الشعراء الذين تخطر لهم الفكرة فيسرعون كالمحمومين بتدوينها على الورق، ثم لا يطيقون بعد ذلك أن يلقوا عليها نظرة واحدة ! لقد كانت تأتيه الفكرة فيبدأ فى كتابتها، ثم يدركه التعب أو يناله السأم أو تشغله مشاغل الحياة، فيتركها ناقصة . وقد يعود إليها فى خلال أيام أو أشهر أو سنين - ربما امتدت نصف قرن كما فعل فى مسرحيته الكبرى فاوست - فيضيف إليها أو يعدل فيها أو يعيد صياغتها فى وزن جديد أو يكتبها شعرًا، بعد أن بدأها نثرًا . وقد يحس أن الفكرة لم تنضج النضج الكافى ، فينتقل إلى مشروع آخر كان قد بدأه ولم يتمه، فيقطع فيه شوطًا ثم يدركه إلى غيره . وتواصل هذه الأفكار حياتها الخاصة فى ضميره ، وكأنها تنتظر حتى يتم خلقها، وتأتى اللحظة المناسبة التى تخرج فيها إلى النور . ولكن اللحظة يطول غيابها ، ويلح الأصدقاء والمحبون على الشاعر ليستأنف عمله من جديد . ولكن انشغاله بأعباء العمل أو السياسة ، وإقباله النهم على نعم الحياة الخصبة والحب المتجدد ، وانصرافه إلى مختلف الأبحاث العلمية فى النبات والطب والألوان وطبيعة الأرض والجو والصخور ... إلخ، يؤخر إنجاز الوعود ، ويزيد من التشتت والتردد . غير أن الإلهام السعيد لا يخيب ظنه ، بل يقبل فى موعده المحتوم ويفرض قانونه الضرورى ، وإذا بالشاعر ينجز عمله فى ساعات أو أيام معدودة ، كما فعل فى «فرتر» وفى معظم قصائده وقصصه الصغيرة ، أو فى شهور قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، أو فى سنوات تمتد امتداد العمر كله !

ومسرحية تاسو من هذا النوع من الأعمال الشعرية التى بدأها الشاعر ثم انتظر ما يزيد على ثمانى سنوات حتى تم لها النضج . فنحن نعثر على أول أثر لها

فى ملاحظة، دوّنها فى مذكراته اليومية فى الثلاثين من مارس عام ١٧٨٠م، حيث يقول: « ابتكار طيب : تاسو » . ولكن يبدو أنه لم يبدأ فى الكتابة إلا بعد هذا التاريخ بفترة طويلة . تشهد على ذلك ملاحظة أخرى، سجلها فى مذكراته اليومية فى الرابع عشر من أكتوبر من السنة نفسها، حيث نجده يقول : بدأت الكتابة فى «تاسو» . ثم تتابع رسائله فى الشهرين التاليين إلى حبيبته المشهورة «فراوفون شتاين»، فيحدثها عن مشروعه الجديد . ويواصل العمل فى مسرحيته إلى أوائل عام ١٧٨١م ، تشهد على ذلك رسالة كتبها إليها من «فيمار» فى العشرين من أبريل حيث يقول : « لا أريد أن أقول لك شيئًا عن نفسى ولا عن الغد . لقد تعبدتك وأنا أكتب فى «تاسو» . روحى كلها لديك . اليوم أريد أن أنشط للعمل » .

ويبدو أن جوته قد استطاع أن يقطع شوطًا كبيرًا فى مسرحيته ، بحيث استطاع فى اليوم العاشر من نوفمبر أن يقرأ المشهد الأول منها على صديقه «كنيبل»، وأن يتم الفصل الأول كله، ويشرع فى الفصل الثانى . ولكن العمل توقف من جديد على أواخر ذلك العام ، حيث نجده يتحدث فى إحدى رسائله التى كتبها فى ذلك الحين عن المسرحية الناقصة . ويبدو كذلك أنه عاد إليها فى ربيع سنة ١٧٨١م ، وأنه قد بلغ فيها ما يشبه النهاية المؤقتة . مهما يكن من شيء، فقد كتب جوته مسرحيته فى هذه المرحلة بالنثر الشعرى أو بالشعر المنثور، كما نقول اليوم ، ثم عاد إلى التفكير فى تعديلها وإعادة صياغتها شعرًا فى أثناء رحلته المشهورة إلى إيطاليا ، بين سنتى (١٧٨٦ و ١٧٨٨م) حتى أتمها فى صورتها النهائية المعروفة فى سنة ١٧٨٩م . وأردنا أن نتتبع خطواته فى هذه المرحلة، فوجدناه يكتب من روما إلى صديقه «كنيبل» رسالة بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٧٨٧م يقول فيها : « أنا الآن أعمل فى «تاسو» التى ينبغى الانتهاء منها » . ويدون فى مذكرات رحلته الإيطالية وهو فى طريق البحر من نابولى إلى «باليرمو» هذه السطور فى الثلاثين من مارس من السنة نفسها : « لم آخذ معى من بين أوراقى كلها سوى الفصلين الأول والثانى من «تاسو» اللذين كتبتهما منذ عشر

سنوات ولم يزالا فى خطتهما وسير أحداثهما شبيهين بما أفكر فيه اليوم - كان فيهما شىء من النعومة والضبابية، لم يلبث أن اختفى عندما غيرت رأيى فيهما فأحكمت بناء الشكل وأدخلت فيهما الوزن والإيقاع » .

وواصل جوته تفكيره فى مسرحيته وراح يتعذب بينه وبين نفسه فى إعادة صياغتها من جديد . فهو يقول فى اليوم الأخير من شهر مارس فى مذكرات رحلته : « .. بدأت أمواج البحر ترتفع ، ومرض أغلب المسافرين .. وبقيت فى مكانى المألوف . أفكر فى المسرحية كلها من أولها إلى آخرها » ، ثم يقول فى اليوم التالى مباشرة : « تجرأت أحيانًا على الصعود إلى ظهر السفينة ، ولكننى لم أدع مشروعى الشعرى يغيب عن بالى ، حتى استطعت إلى حد كبير أن أتحكم فى المسرحية كلها » . ويواصل كلامه فى الثانى من أبريل فيقول : « وجدنا أنفسنا فى الثامنة صباحًا أمام «باليرمو» . فقد كانت خطة هذه المسرحية قد ازدهرت فى الأيام الأخيرة فى بطن الحوت » .. ومع هذا كله، فيبدو أن الشاعر لم يكن قد غيَّر تغييرًا يذكر فى النسخة الأولى التى كتبها نثرًا ولم يعثر عليها الباحثون حتى اليوم . وقد رجع فى الفصلين اللذين أتمهما منها ، ثم عاد فيما بعد إلى صياغتها شعرًا إلى حياة الشاعر الإيطالى «توركواتو تاسو[1] »

---

(١) توركواتوتاسو (ولد فى سورنت فى سنة ١٥٤٤م ومات فى روما فى سنة ١٥٩٥م) من أكبر الشعراء الإيطاليين ، ومؤلف الملحمة الوطنية الكلاسيكية فى أواخر عصر النهضة . كان أبوه «برناردو» شاعر ملاحم وموظفًا فى البلاط ، درس القانوم والفلسفة والبلاغة فى «بادوا وبولونيا» ، ثم التحق فى سنة ١٥٦٥م بخدمة الكاردينال «لويجى دسته» فى مدينة «فرارا» ، واكتسب صداقة الأمير «الفونس الثانى» وأصبح شاعر البلاط ، وعاش محاطًا بالرعاية والتكريم حتى انتابته الشكوك الدينية والنفسية فأصيب بجنون الاضطهاد أو بجنون الكآبة وهرب سرًا إلى شقيقته «كورنيليا» فى مينة «سورنت» . رجع مرتين إلى «فرارا» ، غير أن حالات الجنون عاودته فأدخل فى مستشفى «سانتا أنا» فى سنة ١٥٧٩م ، وبعد أن غادر المستشفى فى السنة نفسها ، عاش بقية حياته شريدًا هائمًا على وجهه . ألف عددًا كبيرًا من القصائد التى حاول فيها إحياء التراث الشعرى الإيطالى الذى أسسه «بتراركا» ، وبعد أن ألف مأساة على غرار أوديب كان نصيبها الفشل ، وضع مسرحيته "الرعوية أمينتا" فى سنة ١٥٧٣م=

١

كما كتبها «جوفاني باتيستا مانسو» ، وملأها دون ترو أو تدقيق بالخرافات والأقاصيص عن حياة هذا الشاعر الكبير . ومع ذلك فقد استفاد شاعرنا كثيراً من القصة التى اخترعها (مانسو) من خياله وزعم فيها أن تاسو قد هام حبا بالأميرة ليونوره شقيقة ألفونس الثانى أمير«فرّار» الذى استضاف الشاعر ورعاه .

لم يشعر جوته بالحاجة إلى كتابة مسرحيته فى ثوب شعرى جديد إلا أثناء رحلته فى إيطاليا . لقد أحس بأن عليه أن يستبعد منها الليونة والغموض ، فيحكم بناء شكلها ويصوغها فى إيقاع شعرى يليق بموضوعها الرقيق النبيل ، ألا وهو الصراع الخالد بين الشاعر والواقع ، وبين عالم الفن وعالم السياسة . ولقد زاد هذا الإحساس لديه حتى كاد يصبح أزمة حادة يعبر عنها قوله فى أثناء زيارته الثانية لمدينة روما فى اليوم الأول من فبراير سنة ١٧٨٨م : « .. ثم أعانى أزمة جديدة ، لا يستطيع أحد أن يشير علىّ فيها أو يعيننى عليها . يجب أن تصاغ «تاسو» صياغة أخرى ، فما لدى منها الآن لا ينفع فى شىء، ولا يمكننى أن أختمه أو أقذف به بعيداً . هكذا حكم اللّه على الإنسان بكل هذا الغناء ! » وتلح عليه الأزمة فى أواخر مدة إقامته الثانية فى روما . فها هو ذا يقرأ من جديد عن حياة «تاسو» كما كتبها «أبانى بيير أنطونيو

= التى تميزت ببساطتها وصدقها ولغتها الموسيقية، وتعد فى نوعها من أنجح الأعمال الشعرية فى الأدب الإيطالى . أما عمله الرئيسى فهو ملحمته الوطنية القدس المحررة La Gerusalemme liberata (١٥٨١م)، وتصور تحرير جيش الصليبيين تحت قيادة «جوتفريد فون بويون» لمدينة القدس . والملحمة نسيج كبير من حكايات البطولة والحب والفداء ، ولكنها تدور أساسًا حول هذه الحملة الصليبية. وقد تردد «تاسو» طويلاً فى نشر ملحمته وراح يأخذ آراء كبار الشعراء فى عصره حتى وصل به الأمر إلى تقديم نفسه لمحكمة التفتيش لتختبر إيمانه وتجيز ملحمته . وقد ألف فى أواخر حياته (١٥٩٣م) ملحمة أخرى بعنوان القدس المفتوحة La Gerusalemme conquistata ، وهى ملحمة دينية خالصة ليست لها قيمة شعرية تذكر . وتعكس أشعار «تاسو» مشاكل عصره التى كانت سببًا فيما أصابه من كآبة وتشكك، انتهيا به إلى الجنون والضياع نتيجة انتشار الإصلاح الدينى المضاد وغلبة التشكك فى أمور الدنيا والآخرة .

سيراستى» ، وكانت قد ظهرت فى روما فى سنة ١٧٨٥م . ويعكف على دراسة هذا الكتاب ، ويأخذ منه أشياء جديدة عن الصراع الذى دار بين «تاسو» ورجال البلاد والسياسة كما يتعرف على شخصية «أنطونيو مونتكاتبنو» الذى سيقوم بدور مهم فى المسرحية ، ويساعد مع صراع الحب اليائس على بلوغ الأزمة فى نفس «تاسو» إلى ذروتها ، حتى يصل الصدام بينه وبين عالم السياسة والواقع الذى يمثله «أنطونيو» إلى قمته فى جنونه الأخير .

ويبدو أن جوته قد ضاق بالمسرحية أو تهيب من إعادة صياغتها . غير أن سحر شخصية «تاسو» كان أقوى من كل تردد ، وطبيعته كانت تنبع من أعمق أعماقه ، بحيث نضج العمل كله على أواخر رحلته الإيطالية ، فأقبل فى خريف ١٧٨٨م وربيع ١٧٨٩م بكليته على العمل، حتى لنجده يكتب إلى صديقه وراعيه الأمير «كارل أوجوست» فى فبراير ١٧٨٩م فيقول : إن «تاسو» ينمو كشجرة البرتقال فى بطء شديد . فلعله أن يؤتى ثماراً حلوة » . واستطاع الشاعر أن يتم مسرحيته فى شهر يونيو عام ١٧٨٩م ، وأن يشنرها فى المجلد السادس من طبعة أعماله الكاملة .

* * *

ما من عمل مسرحى يخلو من الصراع أو يستطيع أن يستغنى عنه . ولقد تحدث جوته بنفسه عن الصراع فى هذه المسرحية فوصفها فى صورة عامة مجردة، بأنها تعالج موضوع التنافر بين الموهبة والحياة . كما وصف أحد النقاد «تاسو» بأنه «فرتر» متطرف أو مبالغ فى لهيب حماسه وعواطفه .

والحق أن هذا هو الانطباع الأول الذى يشعر به القارئ من المسرحية ، دون حاجة منه إلى مزيد من التعمق والتحليل . ففى المسرحية عالمان يواجه كل منهما الآخر ويصطدم به : هناك عالم المجتمع والسياسة ، يمثله الوزير «أنطونيو» والأمير «ألفونس»

والدوقة «ليونورا سانفيتاله» . وهو عالم تغلب عليه روح الحكم والسيادة ويتميز بوضوح الرؤية العقلية ، وطموح الغريزة العملية . وهناك عالم الشعور والفن الذى يرفرف فيه «تاسو» كالطائر الوحيد، فيحلق إلى أعلى القمم ويهبط إلى أسفل الأعماق، ويهيب دائمًا بعظمة الماضى ويحيا على ذكرى الشعراء العظام . ثم يحاول أن يعيش فى الحاضر أو ينسجم مع الواقع فيشعر بعجزه ، ويزداد إحساسًا بانكساره . إنه عالم المطلق والجوهر والفن النقى الخالص الذى لا يمكن أن يقاس به العالم السابق أو يرتفع إلى مستواه ، غير أن هذا التنافر بين العالمين لا يستطيع وحده أن يفى مسرحيتنا حقها أو يفسر مأساة بطلها . فوجه الخطورة فيه أنه قد يغرينا بالتفسير النفسى لشخصية البطل ، أو إرجاع موقفه التراجيدى إلى ما يوصف به من شذوذ أو تطرف أو جنون، وهى أمور عرضية لا يمكن أن تنشأ عنها مأساة حقيقية ، ذلك أن سر مأساة «تاسو» أنه يحس كما لا يحس أحد من المحيطين به بذلك الطموح المطلق الذى ينزع إليه الفنان بطبيعته ، كما يشعر بالعجز الضرورى لهذا الطموح ، ويرفض فى الوقت نفسه أن يقتنع به أو يستسلم له . هذا الخلاف الأساسى بين عالم الخيال وعالم الواقع هو الإطار الذى تدور فيه أحداث المسرحية . وهو خلاف يبلغ من الشمول والعمق حداً، تتصدع معه العلاقات الإنسانية بين الأفراد ، كما يتصدع وجود البطل نفسه من جذوره . ذلك لأنه – مثله فى ذلك مثل هاملت – يسمع صوتًا لا يسمعه أحد سواه ، ويكلف برسالة لا يستطيع أن يحققها في الواقع على الوجه الذى يرضيه ، ويحمل أمانة المطلق أو الحقيقة أو الفن . بغير أن تكون لديه الوسائل الكفيلة بأدائها فى دنيا الأرض والواقع ، أو بغير أن يجد فى هذا الواقع أى استعداد لتلقيها . إنه يجد نفسه ملقى به فيما يمكن أن نسميه «منطقة القدر» يحيط به نظام من الأشخاص والعلاقات، كرّس كل جهده لتحقيق الأهداف والمنافع . وهو يشعر بعجزه عن تعديل هذا النظام أو الاندماج فيه . والمشهد الثالث من الفصل الأول أساسى فى فهم المغزى العام من المسرحية وإلقاء الضوء على موقفها من الزمن والتاريخ . فنحن نرى فى هذا المشهد كيف ينعزل وجود الشاعر، وتنعزل كلماته عن عالم الواقع الذى يعيش فيه

وكيف يفقد هذا العالم الزخير روحه ومعناه . ولذلك فإن «تاسو» لا يتعب من التعبير عن شوقه إلى الزمن الماضى لأنه يجد فيه - على خلاف الحاضر المحيط به - أن الحقيقة والواقع ، والشاعر والبطل ، والحكمة والفعل تنجذب إلى بعضها بقوة أشبه بقوة المغناطيس . والحديث عن اللقاء بين «تاسو» والأميرة لا يبعد بنا عن موضوع المسرحية كما حدّدناه فى السطور السابقة . فقد كان هذا اللقاء هو نواة المسرحية، كما تصورها جوته فى البداية ، ولعله كان هو الباعث الذى دفعه إلى كتابتها بعد أن وجد فيه صدى لحياته وعذابه فى ذلك الحين . وأهم ما ينبغى إبرازه فى هذا اللقاء هو تلك العناصر التى تشهد على صلة القربى التى تربطها بفلسفة أفلاطون . وقد تنبه الباحثون إلى ذلك، وأكثروا من الإشارة إليه . وليس من قبيل المصادفة أن نسمع الدوقة «ليونورا سنفيتاله» تصف الأميرة فى نهاية المشهد الأول من الفصل الأول فتقول إنها تلميذة أفلاطون :

«أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم ما تجرؤ مستجدة على الثرثرة به» وذلك بعد أن وصفت شاعرنا قبل ذلك بسطور قليلة وصفًا لا ينطبق إلا على أفلاطونى يتأمل المثل، أو يتملى النموذج الأوحد الأسمى لكل ما فى الواقع من صور الجمال :

إن روحى الخصب يمجد صورة واحدة فى كل أبياته وقصائده .
أحيانًا يفتنه سناها المضىء فيرفعها إلى السماء المزدانة بالنجوم
ويسجد أمامها سجود العابد كما تفعل الملائكة فوق السحاب .

* * *

المهم على كل حال هو التفسير الميتافيزيقى للجمال والعشق (الإيروس) الذى يحس به كل من «تاسو» والأميرة ، فتاسو يشعر من أول لقاء له مع الأميرة بأن جمالها يأسره . ولعله قد شعر قبل ذلك بأن هذا الجمال نموذج عالٍ يفتقر إليه

الواقع ، أو بأن وجودها قد تشكل بالحقيقة والجمال فى صورة يعجز عنها الواقع . ولقد ظل يقنـع نفسه بهذه الفكرة الأفلاطونية الخالصة، حتى اعتقد أن المثل الأعلى للوجود قد تحقق فى الأميرة ، بعد أن ضاع من العالم المحيط به ، وأصبحت فى نظره خيالاً من الماضى أو مثالاً من المثل البعيدة عن عالم الواقع والتاريخ !

وليست الأميرة أقل منه إيمانًا بهذه المثل العالية أو القيم الأخيرة ، ولا هى أقل منه شوقًا إلى إثراء الحاضر البائس بالجمال المثالى . ولكن إذا كان هذا العشق المشترك هو الذى يربط بينهما برباط من التقدير والإعجاب فإن هناك شيئًا آخر يفرِّق بينهما تفرقة شائعة . فالأميرة تؤمن بأن مثال الجمال لا يتحقق فى الواقع، أو بأن لحظة تحققه لم تأت بعد . وهى تؤمن بذلك إيمانها بقدر قاس أو قانون صارم لا سبيل إلى الإفلات منه . وطاعتها لهذا القانون تكسب شخصيتها مسحة من الكبرياء الحزينة أو الحزن المتكبر ، وتطبع حياتها وسلوكها بطابع الزهد والصدود الذى عرفت به شخصيات نسائية أخرى فى أعمال جوته ، من أهمها شخصية «أوتيليه» فى روايته «الأنساب المختارة» .

وقد ساعدت على هذه المعرفة الأليمة بتعاسة الواقع وبؤسه تجارب شخصية عديدة مرت بحياة الأميرة . فلقد مرضت فى شبابها مرضًا أشرف بها على الموت ، كما عانت أمها المسكينة من قدر قاس لا يرحم . وطبيعى أن أمثال هذه التجارب الشخصية لا تكفى وحدها لطبع شخصيتها بطابع الاتزان والتعفف والزهد اليائس الذى تتميز به . بل إن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذا القدر الشخصى لم يكن إلا مقدمة لقدر أعم وأشمل ، وضعت فيه هى و «تاسو» وتعلمت منه أن الزمن ضنين والواقع فقير . وإذا كان «تاسو» لا يزال يحاول أن يطوع هذا الواقع لمثله وأحلامه ويفرض على ذلك الزمن قانونًا لم يأت أوانه ، فقد عرفت هى أن الواقع قد اغترب عن المثال ، والفعل قد انشق على المعنى ، فوفرت على نفسها آلام خيبة الأمل المتكررة التى يعانيها «تاسو» . وليس معنى هذا أنها استسلمت لمرارة الزمن، ففقدت الإيمان بكل

قيمة أو معيار . بل معناه على العكس من ذلك، أنها راحت توجه حياتها على هدى قيم موضوعية متزمتة لا مكان فيها للرغبة أو الطموح ، وأنها قد عرفت – والمعرفة مريرة – فأخذت نفسها بفضائل الصبر والاحتمال والحرمان . إن أكثر أحاديثها مع «تاسو» تشهد على ذلك ، فهي تحاول أن تهديه إلى التعقل والاتزان . وتحاول أن تريه الواقع البائس على حقيقته ، وهو لا ينفك سادراً في أحلامه . تائهًا في ضلال حبه . ومع أنها تشعر بغربتها عن العالم المحيط بها . وتحس بوحدتها في البلاط وعزلتها عن الدوقة «ليونورا سانفيتاله» أقرب الناس إليها . فهي لا تتردد مع ذلك في الإيمان بالقيم والتقاليد التي تتحكم في عالم البلاط الذي نشأت وتربت فيه . وإذا كان هذا الإيمان هو الذي يجمع بينها وبين شقيقها الأمير، والوزير «أنطونيو» والدوقة «ليونورا» . فهو كذلك ما يفرق بينها وبينهم . ذلك أنها تعتقد أن القيم والعادات السائدة في حياة القصر شحيحة في هذه الفترة المحدودة من الزمن . وتعتقد في الوقت نفسه أن هناك قيمًا أعلى منها لم يئن أوان تحققها في عالم الواقع . ولعل هذه العقيدة هي التي تجمع بينها وبين «تاسو» وتجعلها تقف منه موقف الإعجاب الصامت ، والحب الزاهد الحنون . وإذا جاز لنا أن نتحدث عن خطأ «تاسو» أو خطيئته ، فإن في استطاعتنا أن نقول إنهما يكمنان في إساءة فهمه للحظة المناسبة ، ومحاولته اليائسة للتوفيق بين المثال والواقع، والتوحيد بين الروح والفعل ، في زمن قدر عليه أن يشهد الفراق الحاسم بينهما . إنه يريد أن يثرى عالمًا حكم عليه بالفقر ، ويحقق المطلق على أرض الواقع النسبي . ومن هنا فإن المسرحية تفرض ثلاث مراحل زمنية، تتابع واحدة بعد الأخرى على نحو يشبه ما نجده في تصور أفلاطون :

فهناك زمن الوحدة المثالية أو الأسطورية بين عالم مثالي وآخر واقعي ، يتبعه زمن تمت فيه الفرقة بينهما فكان الانقسام إلى جسد وروح ، وفعل وفكر ، وقد يأتي بعدهما زمن ثالث يتحقق فيه الصلح من جديد ، وتتلاشى الثنائية الظالمة في نعيم الوحدة والسعادة الخالدة .

وليست للإنسان يد في هذا اللحن الزمنى المتتابع . وليس عليه كذلك إلا أن يعترف ويندمج فيه . أما أن يقف منه موقف الاعتراض والاحتجاج، فلن ينتهى منه إلا إلى نهايته . ولن ينتج عنه سوى الندم أو الجنون أو السقوط فى هاوية المأساة .

* * *

وقد أشار كثير من النقاد فى هذا الصدد إلى أوجه التشابه العديدة بين «تاسو» ومسرحية سوفوكليس «أوديب ملكا» [(١)] وراحوا يفتشون عن عناصر الاتفاق بينهما فى الموضوع والأسلوب والحوار . ولعل الدافع لهم على ذلك أن «تاسو» من الأعمال الفنية القليلة، التى تبين لنا كيف يترك الزمن أثره على الإنسان، فيحدده ويطبعه بطابعه ويصبح قدره ومصيره . ومن هنا كانت للحياة الوجدانية والنفسية، بما فيها من عذاب الفراق والتذكر والانتظار والأمل والحنين إلى الماضى، أهمية كبيرة فى هذه المسرحية، شأنها فى ذلك شأن مسرحيات جوته التى تهتم بعالم الباطن أكثر بكثير من اهتمامها بعالم الظاهر والأحداث الخارجية . ولعل هذا أيضًا هو الذى جعل الشاعر يلجأ فى بناء مسرحيته إلى الشكل الإغريقى القديم ليصب فيه موضوعًا أو مشكلة حديثة ، يتركز الصراع الحقيقى فيها فى باطن الإنسان .

ومع أن «مأساة أوديب» فى صميمها مأساة ميتافيزيقية خالصة ، ومأساة «تاسو» مأساة تاريخية مرتبطة بزمن معين إلا أنهما متشابهان من حيث الشكل التحليلى الذى يتميز به بناؤهما الدرامى . فالأمر يدور فى «تاسو» وفى «أوديت» حول الكشف التدريجى عن مشكلة أو مظهر فاسد كامن فى طبيعة البطل نفسه ، تزيده حيرته وتخبطه تعقيدًا على تعقيد . ومن ثم كان العذاب الوجدانى فى «تاسو» وفى

---

(١) كارل رينهارت ، الأعمال والأشكال ، جودسبرج ١٩٤٨م ، ص ٤٤٤ وما بعدها .

«أوديب» أهم من الفعل ، والمعرفة المريرة التي تتكشف شيئًا، فشيئًا أخطر بكثير من التطور التاريخي . ولذلك نجد البداية والنهاية في كليهما أشبه بصورتـين متقابلتين . فـ «أوديب» فى بداية المأساة هو منقذ الجميع، وفى نهايتها المنبوذ من الجميع ، و«تاسو» فى بداية المسرحية هو الشاعر الذى يحتفل الجميع بتتويجه، ولكنه فى نهايتها المطرود الذى حكم عليه بالدمار والانكسار . وإذا كان هناك فرق بينهما فإن أوديب قد حكم عليه قدر ظالم مجهول بالتردى فى أخطاء لا ذنب له فيها ، بينما أخطأ «تاسو» بخياله الجامح وعاطفته المتهورة فى حق الزمن ونظامه ، وحاول أن يفرض الحقيقة الشعرية على الواقع العملى الذى لم يتأهب لها . ولكن البطل هنا وهناك بدأ عظيماً فى مجده وانتهى عظيماً فى انهياره ، وذلك هو جوهر المأساة .

* * *

ماذا نقول عن هذه القصيدة الطويلة الحزينة التى نسميها تاسو؟ أهى دراما أم مأساة ، أهى قديمة أم حديثة ؟ إننا نحار أمام هذا النسيج الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يحدث فيه شىء ، ومع ذلك فكأن الضرورة هى التى نسجت خيوطه ، ونعيش فى عالمه الأنيق الجميل، ومع ذلك يترك فى نفوسنا شيئًا يشبه الفزع الذى تتركه فينا المآسى الإغريقية حسن تشعرنا بقسوة القدر الظالم المجهول . كيف يمكن أن تكشف هذه الحياة المنمقة الزاهية عن هوة من الحزن بلا قرار . وكيف يؤدى كل ما فيها من جمال ونظام وسمو فى الأخلاق والتقاليد إلى تحطيم نفس رقيقة حساسة ؟ أيمكن أن تمرض هذه النفس وتيأس فى عالم يحبها ويرعاها ويدللها ويكاد يؤلهها؟ أم أن هذه الحياة المهذبة الراقية ليست إلا واجهة مصطنعة تخفى العداوة الحقيقية للشاعر الأصيل ، وتكره عالمه المترفع عن عالمها الغارق فى التكلف والتظاهر والمنافع والأغراض؟ ثم من المذنب فى مأساة شاعرنا؟ أهم سكان البلاط الذين لا ندرى إن كانوا أصدقاءه أو أعداءه ولا نعرف إن كانوا يضمرون له الشر أو الخير؟! أهم جماعة

يتعاون كل فرد فيها على إنماء موهبته أم يتآمر على عبقريته فيستغلها لمصلحته ، ويبطش بها إذا وجد أنها لم تعد تحقق أهدافه ؟ أم يكون الشاعر نفسه هو المذنب، لأنه تجاوز الحد الذى كان عليه أن يلتزم به ، وراح يغوص فى وهم خداع جعله يقضى على سعادته ويلقى بالمسئولية على المحيطين به ؟ ألا نحطم بذلك صورة الشاعر الذى يحمل رسالة فريدة ويعيش - وهذا حقه - فى عالم لا يصح أن نتدخل فيه أو نحاول تشكيله على هوانا ؟ ألا نسىء إلى الشعر نفسه حين نصور «تاسو» رجلا مريضًا يسوقه الفشل النفسى خطوة فخطوة إلى الدمار ؟ إن الأمر فى «تاسو» كما قلنا يتعلق بالكشف لا بالتطور ، وبالمعرفة لا بالحدث ، وبالعذاب لا بالفعل . ولكن ما الذى يتكشف هنا ويعرف ويعانى ؟ لو دققنا النظر فى النص الشعرى الذى بين أيدينا لتبين لنا أن الأمر فيه ليس أمر صراع درامى عادى، بين نفس عاطفية حساسة وعالم الدسائس والمؤامرات المحيط بها ، بل إن موضوع المسرحية هو العذاب الذى يكابده الشاعر ، والحديث الذى يدور بينه وبين نفسه المنطوية ، والتناقض الخفى الذى كان يخفيه فى صدره فساعد الوسط المحيط به ، بإرادته أو بغير إرادته ، على كشف الغطاء عنه . وبذلك تكون «تاسو» مأساة حديث ذاتى (مونولوج) ، أو لحنًا فاجعًا وحيدًا لا تقوم فيه بقية الشخصيات إلا بدور الأصوات المصاحبة، التى تغطى عليه أحيانًا وتبرزه أحيانًا أخرى .

إنها لا تمثل شخصيات تصطدم بالبطل أو تقف معه ، كما هو الحال فى الفعل الدرامى المعتاد . وإنما هى أشكال وصور تنعكس عليها نفسه وتشدها إلى وجدانها الوحيد وتفسرها تفسيرًا شعريًا خاصًا بها ، ولا يمنع هذا من أن تحتفظ بشخصيتها المستقلة ، وكيانها الواقعى الذى يعجز الشاعر عن فهمه ، ويرى نفسه مستبعدًا منه . وليس من المهم أن تكون هذه الشخصيات معه أو عليه - فالواقع أنها جميعًا تشجعه وتسترضيه وتخطب وده - بل المهم أن لكل منها وجوده الواقعى الذى يختلف عن وجوده الشعرى الحالم ، وأن هذه الحقيقة وحدها هى التى تدمر حياته وتكشف له عن

مأساة موقفه ، وذلك بمجرد أن يتضح له أن الموهبة لا بد أن تصطدم مع الحياة . وهكذا لا تقول المسرحية كلها أكثر من أن الوجود الشعرى وجود مأساوى . لا يقتصر ذلك على مدينة «فرارا» وحدها ، بل كذلك كان الأمر ، وكذلك سيكون فى كل مكان وزمان . ويزيد من قسوة هذا الإحساس أو من مرارة هذه المعرفة أن شاعرنا يعيش فى وسط مدنى مهذب راق – ولقد أوهم نفسه بأنه وجد فى هذا الوسط الحالم الأنيق (على الأقل من الظاهر) ما يستجيب لصوته الشعرى الباطن . ولكن المأساة كلها لم تصبح مأساة إلا لأنها تكشف النقاب شيئًا فشيئًا عن هذا الوهم ، وتبين أن الذوق والتمدن لا يكفيان لإنقاذ الشاعر الذى كتب عليه أن يحيا ويموت وهو استثناء عظيم . تلك هى المعرفة التراجيدية التى يتعلمها «تاسو» ونتعلمها منه . وذلك هو سبب هذا الحزن الهادئ الفاجع الذى تملؤنا به هذه المسرحية ، على الرغم من أننا نعلم أن الشخصيات كلها – بما فى ذلك الوزير «أنطونيو» إذا أحسنا فهمه – تتضافر على حمايته وتتنافس فى رعايته ومكافأته والعطف عليه . ولكنها لا تعلم أنها بذلك تزيد حياته تهديداً ، وأنها بوجودها الواقعى وعالمها غير الشعرى تزيده إحساسًا بوحدته فى عالمه الخيالى المثالى غير المحدود .

* * *

ما قيمة الشاعر بالنسبة لذلك العالم وما دوره فيه ؟ إن المشهد الأول من المسرحية يرمز للإجابة عن هذا السؤال . فتاسو يظهر حاملاً فى يده ملحمته الشعرية التى فرغ من كتابتها ، وإن لم يفرغ بعد من التشكك فيها والتفكير فى إكمالها ! وتتقدم الأميرة لتضع على رأسه إكليلاً من الغار، كان المفروض أن يزين تمثال الشاعر الرومانى الأكبر فرجيل . فإذا تأملنا هذا المشهد من ناحية البلاط وجدناه مظاهرة للتفاخر والإعلان ، ومرآة تعكس زينته وأبهته . إن الأمير «ألفونس» محتاج إلى موهبة الشاعر لأنه سيظل بدونها فى صف البرابرة المتوحشين ، ولأنها تزيد أمجاده الواقعية

أمجاداً أخرى في عالم الشعر والخيال . إنه يستطيع الآن أن يقول للناس : انظروا ! إن عندى، إلى جانب القصور والجيوش والآثار القديمة والخدم والحشم، شعراء وكتاباً وفنانين ! والدوقة «ليونورا سانفيتاله» محتاجة إليه، لأنها تريد أن ترى نفسها منعكسة على مرآة روحه الجميلة، ولأنها – وهى الأنانية المغرورة بفتنة الأنوثة – تستطيع أن تضيفه إلى الزوج والأطفال وتجرجره خلفها كأنه ذيل ردائها الأنيق ... إنها سيدة المجتمع الرائعة التى يهمها أن تضيف إلى ثروتها شاعراً موهوباً مسكيناً ! وإذا كانت تلجأ إلى المؤامرة التى لا ضرر منها ، فلأنها تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتظهر مهارتها في إتقان ألعاب القصور . أما الأميرة فهى فى حاجة إليه، لأن حياتها التى عانت من المرض والعذاب محتاجة لمن يرد إليها الحياة، ولأنها – وهى تلميذة أفلاطون – تعلم أن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يسمو بها إلى عالم التجانس والصفاء والنقاء . فالشعر بالنسبة إليها هو الوسيلة الوحيدة التى بقيت أمامها لاحتمال الحياة المسرفة فى المادية والغلظة والجهامة . إن الأميرة لا تتظاهر كغيرها ، وهى أبسط نفساً وأرق حساً من أن تهين الشاعر بالعطف عليه . ذلك لأن أهم ما يميزها هو البساطة والسمو والكبرياء ، حتى لتكاد كل كلمة تقولها وكل إشارة تصدر عنها أن تنطق بالترفع والابتعاد . إنها أفلاطونية تفكر تفكير الفيلسوف العظيم، وتشتاق إلى الجوهر الباقى وراء المحسوس المتغير ، وموقفها من كل ما هو مادى موقف الترفع والتعفف ، وحديثها إلى «تاسو» حديث روح إلى روح ، لا حديث امرأة إلى رجل . فإذا ظن الشاعر فى عنفوان عاطفته الملتهبة أنها تبادله حباً بحب ، أسرعت تزجره عنها فى رفق تارة، وفى عنف تارة أخرى . ذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليها ولن يكون أكثر من واسطة إلى «العهد الذهبى» الذى مضى، ولن يعيده إلا الأخيار والطيبون . صحيح أنه «وسيلة » إلى هدفها ، ولكن ما أعظم الفرق بين هذا الهدف وبين أغراض المحيطين بها فى البلاط ..!

إذا كان هذا هو موقف الجميع من مشهد التتويج، فما أشد ما يختلف موقف «تاسو» منه ! فليس الخيال والشعر، بالنسبة إليه، تجميلاً للحياة أو زخرفة لها ، بل إن الحياة عنده هي الخيال ، والشعر هو الوجود . ولذلك فإن التتويج يفقد عنده قيمته المؤقتة المحدودة ، وينقله إلى عالم غير واقعي ، إلى وطن النشوة الخلاقة والتجربة الشعرية الذي يوجد في كل مكان، ولا يوجد في أي مكان . ولذلك فهو يدهش الجميع بتردده عن قبول الإكليل ، ويغضبهم برعبه المفاجئ الذي يجعله يقول :

دعـــوني أتـــردد ، فلســـت أدري

كيف يمكنني أن أعيش بعد هذه اللحظة

وتنقلب لحظة التكريم إلى شقاء لا حد له . فهو يحس، كأن الإكليل يحرق شعره ، ولهيب الحمى يعصف بدمه . ويشعر أن التاج الذي لم يكد يستقر على جبهته، قد انتقل به إلى جنة الخالدين ، وطار به إلى مملكة قديمة مسحورة يتحد فيها البطل والشاعر ، وتتعانق الفروسية والفن . ولكنه يشعر كذلك شعوراً خفيًا بأنه قد صار غريباً عن كل الوجوه التي تنظر فيه أو تبتسم له ، وبأن «فرارا» ليست هي وطنه الذي كان يحلم به ، بل إنه ككل الشعراء لا وطن له ، حكم عليه بمحض وجوده كشاعر أن يعيش مهدداً ، ضائعًا ، يتحدث فلا يفهم ، ويقول فلا يسمع .

ويتضح الدور الذي يمكن أن يقوم به الفن عامة، والشعر بوجه خاص في مثل هذا المجتمع، عندما يظهر الوزير «أنطونيو» في المشهد الرابع الذي يلي المشهد السابق .

فالأضواء تسلط على الجانبين السياسي والعملي في حياة البلاط ، بحيث لا يعود هناك مجال للشك في أن العلم والفن والشعر لا وزن لها، إلا إذا كانت وسيلة لخدمة السياسة وزينة على صدور الحكام . وإذا كان «أنطونيو» – وهو الوزير الناجح الذي ابتعد عن البلاط فترة من الزمن في مهمة ناجحة – يُعبِّر عن غضبه وسخطه المكتوم على «تاسو» ، فليس ذلك لأنه يشعر بأنه غريمه الذي أوشك أن يحتل مكانه في البلاط

أو فى قلوب النساء ، بل لأنه يشعر كذلك بفطرته أن عالم «تاسو» غير الواقعى يهدد عالمه الواقعى ، وأن الخيال والشعر خطر عليه أى خطر . إنه يدافع بغريزته عن حياته ، ويريد أن يحمى نفسه من عالم الشعراء والموهوبين، الذى يحس أنه غريب فيه . وليس فى الأمر شىء من سوء النية أو الحقد أو الاعتداء ، بل إنه تصرف طبيعى، تمليه ضرورة عمله وحياته . ولذلك فلا يصح أن نستكثر عليه موقفه النبيل فى آخر المسرحية حين يرى «تاسو» مشرفًا على الهاوية، فيمد له يدًا مخلصة عاطفة .

أما «تاسو» فهو يتصرف كذلك بما يتفق مع طبيعته فينظر إلى عالم السياسة المحيط به بمنظار الحلم والخيال .

إنه يحاول تحت إلحاح الأميرة أن يلتقى بـ «أنطونيو» ، ويمد يده إليه فى حماس لإيمانه بأن البطل والشاعر يمكن أن يلتقيا ويتحدا ، وهو شىء لا يمكن أن يحدث إلا فى العالم الذهبى المسحور الذى يحيا فيه . ويفزعه تردد أنطونيو وتحفظه . ويسرع إلى التشكك والتوهم . وتزداد شكوكه وأوهامه يومًا بعد يوم، حتى تنتهى به إلى الكارثة المحتومة .

ولو أنه قنع بعالمه أو سلّم باختلافه عن العوالم الأخرى ، لما فقد ثقته فى نفسه ولا كانت هناك ضرورة إلى حزنه الجارف المؤثر الذى لا عزاء فيه .

فما أقسى أن يرى نفسه ملكًا فى مملكة الخيال ، ورفيقًا للأبطال والشعراء الخالدين ، ثم يرى نفسه مع سذلك يسير فى دنيا الواقع والمنافع كالشحاذ اليتيم !

ولو استطاع هذا الخيالى المسكين أن يقفز القفزة المناسبة من عالمه المسحور إلى عالم الواقع، لانتشل نفسه من مهاوى العدم وحقق السعادة فى الدارين ! ولكن هل كان يستحق منا عندئذ أن نسميه شاعرًا ، أم كان يصبح انتهازيًا ممن تمتلئ بهم حياتنا الفنية اليوم ؟!

إن الخلاف بين «تاسو» و «أنطونيو» خلاف أساسى بين الشاعر ورجل الحكم ، تصطدم فيه العاطفة الجارفة بالعقل الناقد المتزن . ويصل الشقاق بينهما إلى حد تبادل الألفاظ الجارحة ، فيجرد «تاسو» سيفه ويطالب «أنطونيو» بالنزال . ويتدخل الأمير بينهما ، ويعاقب «تاسو» بالحبس الانفرادى فى غرفته.

هنا نستطيع أن نقول إن شيئًا قد حدث ، وهو أمر نادر فى هذه المسرحية ! فهذا الحادث الضئيل كان وحده كافيًا للإلقاء بـ «تاسو» في هاوية الحزن والوحدة التى لا مخرج منها . إنه لم يرتكب خطأ فى حق النظام الأخلاقى ، بل اصطدم بالقواعد الشكلية . و «الشكل» فى مثل هذه المجتمعات هو كل شىء . ولذلك فالأمير لا يحاول أن يعرف المخطئ من المصيب . وإذا عاقب فعقابه شكلى . لقد عفا بالفعل عن المذنب ، وترك له أن يحرس نفسه بنفسه ، أعنى أن يهرب من هذا السجن الشكلى إذا شاء . وقد كان من الممكن أن تمر العاصفة لو أن «تاسو» خضع لإرادة هذا النظام الشكلى . ولكنه لا يقدر على ذلك ولا يمكن أن يقدر عليه . ذلك لأن وجوده كله كشاعر إنما هو تمرد على الشكل . فالشكل قالب مصطنع نفرضه على الحياة ، والشاعر يعيش على الخيال الذى يفجر القوالب ويكسر الحواجز والحدود . ولو اعترف بها لأنكر نفسه . فهو الممسوس الذى تسيطر عليه قوى أقوى منه . ولذلك فليس فى قدرته أن يسلم بالحدود التى تفصل بين إرادة الذات وبين الالتزامات الواجبة نحو المجتمع .

لقد عميت عينه عن رؤية الواقع ، لأن كل ما نسميه بالواقع، قد تحوّل عنده إلى خيال . إنه كالممثل على المسرح ، يسمع الكلمة التى يبدأ عندها فى إلقاء دوره ولكنه لا يكاد يسمع ما يقوله سواه . ولذلك يصعب عليه أن يخرج من نفسه ، أو يعرف الموقف المحيط به على حقيقته . ولو قارنا بينه ربين «أنطونيو»، لوجدنا الأخير على حق دائمًا ، فهو يملك كل ما يفتقر إليه «تاسو» من إحساس صائب بالواقع ، وفهم لما يليق فى المجتمع وما لا يليق .

غير أنه يفتقر إلى مملكة الشعر التى أغلقت بابها فى وجهه كما تعوزه القدرة على الإبداع والحماس والانطلاق . ومع ذلك فعلينا أن ننصفه فنقول : إنه يدرك ما سميناه من قبل تنافر الموهبة مع الحياة ، ويحاول أن يكفكف من غلواء «تاسو» ويقاوم تطرفه ويعيده من جديد إلى أرض الواقع والمجتمع .

غير أن محاولاته النبيلة تبوء بالفشل ، لأنها موجهة إلى تاسو « الإنسان» إلى تاسو «الشاعر» ، ولأنها تطبق معياراً يصلح للقعدة لا للاستثناء ، وللكل لا للفرد . ولو استمع «تاسو» إلى نصحه، لما كان هو «تاسو» ولا كان من حقنا أن نتحدث عن مأساته . فإذا كانت قوة «أنطونيو» فى خضوعه للنظام والتزامه بالأصول والحدود ؛ فإن قوة «تاسو» وضعفه فى آن واحد في تمرده على كل المقاييس والأشكال ، وخضوعه لضرورة الخلق والإبداع .

وإذن فقد ظل صادقاً مع طبيعته كشاعر وإنسان فريد ، ولو أحنى رأسه، لأصبح واحداً من مئات الشعراء الذين ازدحم بهم الأدب العالمى (والأدب العربى بوجه خاص!) وعاشوا وماتوا كالشحاذين على صدقات الأمراء والسلاطين ..!

إن من أعز أشواق الإنسانية أن يحيا الشاعر والفنان مع المجتمع فى وئام . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الشاعر والفنان لا يستطيع إلا أن يكون شاعراً وفناناً ، أعنى أن يعيش فى صراع دائم مع القيود والحدود ، ويحيا فى عالم خاص به يبعده بوجه من الوجوه عن المجتمع ويبعد المجتمع عنه .

فكل من جعل من الإليزيوم (جنة الخالدين) وطنه ومسكنه ، لا بد له أن يحيا غريباً على الأرض مثل «تاسو» . ومع أن بلاط «فرار» قد قدم لشاعرنا أقصى ما يقدم من واجبات الضيافة والرعاية، فقد أوضح مع ذلك بصورة مفزعة أن التفاهم بين الشاعر والمجتمع يقوم دائماً على سوء تفاهم ضخم . لذلك تحسن المجتمعات صنعاً، إذا تركت للشعراء حرية الرفض والاحتجاج وكفلت لهم حق التفرغ والاعتزال . ذلك لأنهم لا يحتجون عليها إلا حباً فيها ، ولا ينعزلون عنها إلا ليزدادوا قرباً منها ومعرفة

بها . كان هذا هو حق القواد والرواد دائمًا ، ومن أحق بالقيادة والريادة من الفنانين والشعراء ؟!

لا بد أن يكون لدى الشاعر أو الفنان ما يقوله . ولعل «جوته» . لم يرد بمسرحيته **«تاسو»** أكثر من أن يقول إن وجود الشاعر عذاب . لقد صور فيها حالة نفس مريضة . ولكنه لم يقصد تصوير المرض النفسى لذاته ، بل ليوضح من خلاله طبيعة الإحساس الشعرى بالحياة ، وهو إحساس يستمد قوته من ضعفه وتعرضه الدائم للخطر والدمار . فالشعر هنا والفن عمومًا ليس هو الحالة السوية . بل هو شيء غريب ، مضيّع ومريض . ولا شك أن هذه نظرة رومانتيكية أو عاطفية . ولا شك أيضًا أنها أثرت في **تصور** الرومانتيكية للشاعر والفنان كما عبَّرت فى السنوات الأخيرة عن نفسها أوضح تعبير فى أعمال كاتب كبير، مثل «توماس مان» . وطبيعى أن يكون «جوته» قد صور فى مسرحيته جانبًا من حياته وآلامه الشخصية ، وإن لم يمنع هذا من أن تنفرد الصورة بحقيقتها المستقلة . لقد سبق أن فعل ذلك فى رواية شبابه «فرتر» ، فكانت تسجيلاً لعذابه وخلاصًا من هذا العذاب فى وقت واحد . وهو قد فعل الشىء نفسه فى **«تاسو»** ، فتجاوز همومه إلى هموم الشعراء بوجه عام ، وبيَّن أن الشاعرية فى صميمها نوع من العذاب الذى يكابده الشاعر فى العالم وفى ذاته ، ينشأ عن إفراط فى الخيال وتفريط فى الواقع . فمن طبيعة المخيلة أن تعلو وتتجاوز باستمرار ، وتتحرك حركة جارفة متدفقة تتخطى «الهُنا» و «الآن» ، ولا تعترف إلا بالماضى أو المستقبل . وقد أورد «إكرمان» حديثًا له مع «جوته» فى اليوم الثامن من شهر مارس سنة ١٨٣١م ، أى قبل وفاته بسنة واحدة ، يمكن أن ينطبق على «تاسو» بصورة مباشرة . فقد قال له «جوته» : « إنه لا شك أن فى الشعر وبالأخص فى غير الشعورى منه، شيئًا شيطانيًا لا يدركه الفهم ولا العقل ، ويؤثر من أجل ذلك تأثيرًا لا يمكن تصور مداه » . ولا بد أن «جوته» قد أراد أن يحد من خطر رومانتيكى كان يتهدده ويغريه بالانسياق وراء الخيال الجامح والبعد عن الأرض ونظمها

وأشكالهـا . ولا بد أنه وصل بذلك إلى الهـدوء والاتزان الذى تميَّز به فى حيـاته وأعماله.

ولكن هل وصل «تاسو» نفسه إلى شيء من هذا الهدوء والاتزان؟ هل وجد فى النهاية بعض العزاء عن حزنه المنكسر الأليم ؟ وهل كان فى قدرته على التعبير عن هذا الحزن أو فى شاعريته نفسها، ما يعوضه عن فشله وهوانه فى العمل والحياة؟

لا بد أنه أحس بما يشبه العزاء الميتافيزيقى عن تحطم وجوده التعيس، حين قال عن نفسه فى نغمة لا تخلو من الفخر والكبرياء: إن اللّـه قد أعطاه القدرة على التعبير عن عذابه، حين حرم غيره من هذه القدرة وتركه أخرس من الألم :

لم يبق إلا شيء واحد : الدموع التى أعطتها لنا الطبيعة
وصرخهة الألم التى يطلقها الإنسان
حين يعجز عن الاحتمال .
وأنا الذى احتفظت بهذه الهدية السامية
تركت لى فى الألم اللحن والخطاب
لأشكو همومى كلها فى نشيدى :
وإذا ما أخرس الإنسان عذابه
وهبنى الرب أن أُعبِّر عن عذابى .

ما أجمل هذه النعمة التى وهبتها له السماء ، وما أعظم المعرفة التى تفيض - على مرارتها - بالحكمة والصفاء ، والتضحية التى قدم بها حياته قربانًا للشعر والشعراء !

* * *

ملحـــوظـــة

بقيت كلمة، أحُبُّ أن أسوقها عن هذه الترجمة . فقد رجعت فيها إلى النص المحقق الذى نشر فى طبعة هامبورج المشهورة لأعمال «جوته» ، بإشراف الأستاذ «يوسف كونس» Joiseph Kunz ، كما استفدت فى كتابة المقدمة من تعليقه على المسرحية ومن الفصل الذى كتبه عنها العلامة «بنوفون فيزه» Benno Von Wiese فى كتابه التراجيديا الألمانية من لسينج إلى هيل . وقد رجعت كذلك إلى الترجمة الفرنسية التى قام بها «هنرى توما» "H. Thomas" ونشرت مع بقية مسرحيات «جوته» فى مجموعة البلياد المشهورة، واستفدت منها كثيراً فى توضيح ما غمض علىّ من النص الأصلى . ولست أدرى إن كانت هذه الترجمة قد استطاعت أن تنقل بعض ما فى الأصل الشعرى من رقة وجمال لا يوصف، فالأفضل أن أترك الحكم فى ذلك للقراء !

عبد الغفار مكاوى

شَـــخْــصِــيَّات الــمَــسْــرحِــيَّــة

Alfons der Zweite, Herzog von Ferrara.	ألفونس الثانى : أمير فرارا
Leonore von Este, Schwester des Herzogs.	ليونورا فون استه : شقيقة الأمير
Leonore Sanvitale, Grafin von Seandiano.	ليونورا سانفيتاله : دوقة سكانديانو
Torquatoi Tasso.	توركواتو تاسو
Antonio. Montecatino, Staatssekretar.	أنطونيو مونـتيكاتيـنو : وزير

« المشهد فى بلريجواردو، أحد قصور الترف»

الفصـــل الأول

المنظــر الأول

« فنـاء حديقـة تزينه تماثيل نصـفـيـة لشعراء الملاحم » .

« يظهر في مقدمة المسرح على اليمين تمثـال فـرجـيـل ، وعلى اليســار تمثـال أريوست » .

المشـــهد الأول

" الأمـــيرة - ليـونـورا "

الأمـيـرة : ليونورا ، أنت تنظـرين إليَّ وتبتسمين
ثم تنظرين إلى نفسك وتبتسمين من جديد .
ماذا بك ؟ دعى صديقتك تعرف الخبو !
التفكير يبدو عليك ، ومع هذا يبدو عليك السرور

ليـونـورا : أجل يا أميرتي ، يسرني أن أرانا هنا
في زينة أهل الريف .

نبدو كالراعيات السعيدات

ويشغلنا ما يشغل السعداء .

نحن نعقد الأكاليل . هذا الذى يزدان بالزهور(١)

يكبر شيئًا فشيئًا فى يدى ،

وأنت بفكرك السامى وقلبك الكبير

قد اخترت الغار الرقيق النحيل .

الأميرة : الأغصان التى جدلتها بالفكر والخيال ،

سرعان ما وجدت رأسًا بها جديرًا :

إننى أضعها ممتنة على رأس فرجيل .

(تضع الإكليل على رأس فرجيل)

ليونورا : وها أنا أيضًا أثبت إكليلى المكتمل البهيج

على جبهة المعلم لودفيج العالية(٢) .

---

(١) وجد جوته مشهد التتويج مصورًا على غلاف الترجمة الألمانية لملحمة «تاسو» الشعرية «أورشليم المحررة»، التى كان يعرفها منذ صباه

(٢) المقصود به هو الشاعر الإيطالى لودفيكو أريوستو (١٤٧٤ - ١٥٣٣م) ، وكان أبوه موظفًا فى بلاط أمير « فرارا » . درس القانون ثم عدل عنه إلى دراسة الحضارة القديمة وفن الشعر، وبدأ يكتب أشعارًا باللغة اللاتينية . اضطر بعد وفاة والده (١٥٠٠) إلى رعاية شئون أسرته ، فالتحق بخدمة الكاردينال « أبوليتو دسته » ، الذى أرهقه بالعمل مما جعله يلتحق ببلاط « ألفونسو دسته » ، حيث قضى بقية حياته هناك . ألّف مسرحيات هزلية على نمط مسرحيات «بلاوتوس وتيرنس»، لتعرض على مسرح البلاط ، كما وضع عددًا كبيرًا من القصائد الانتقادية الساخرة، التى تسمى بالساتير ينتقد فيها عصره وبيئته . ولكنه عرف فى تاريخ الأدب بملحمته الشعرية الكبرى «أورلاندو الغاضب» Orlando Furioso، التى ألفها فى سنة ١٥٣٢م فى ستة وأربعين نشيدًا وتمد أكمل الأعمال المعبرة عن عصر النهضة .

(تضع الإكليل على رأس أريوست)

هذا الذى لن تذبل دعاباته

ليأخذ حظه من الربيع الجديد .

الأميرة : شاءت مروءة شقيقى أن يرسلنا

فى هذه الأيام إلى الريف .

نستطيع أن نخلد إلى أنفسنا ونقضى الساعات

ونحن نحلم فى زمان الشعراء الذهبى .

أحب بلريجواردو ، فكم من يوم بهيج .

من أيام الشباب عشته هنا فى حبور ،

وهذه الأوراق الخضراء ، وهذه الشمس

تبعث فى وجدانى الإحساس بالزمن البعيد .

ليونورا : أجل . إن عالماً جديداً يحيط بنا !

ظلال هذه الأشجار المخضرة أبدا،

تغمر القلب بالسرور .

وخرير الأمواج يسعد النفس من جديد .

الغصون الشابة تهدهدها ريح الصباح .

والزهور تتطلع إلينا من أحواض الزرع

وفى عيونها الطفلية نظرة ودود .

والبستانى يرفع مطمئناً سقف البيت الزجاجى .

الذى غرس فيه الليمون والبرتقال .

السماء الزرقاء تمتد من فوقنا ،

وعلى مدى الأفق يذوب الثليج .

على قمم الجبال البعيدة .

ويرسل أنفاس العبير .

الأميرة : كم كنت أود أن أرحب بالربيع

لو لم يسلب منى صديقتى .

ليونورا : لا تذكِّرينى ، فى هذه الساعات الحسان

بأننى ، يا أميرتى ، سأرحل عن قريب .

الأميرة : كل ما قد تهجرينه ، سوف تجدينه مضاعفًا

فى تلك المدينة الكبيرة من جديد .

ليونورا : الواجب يدعونى ، والحب ينادينى

للزوج الذى طال حرمانه .

سأحضر له ولده ، الذى أسرع نموه

وزكت تربيته فى هذا العام

وأشاركه فرحة الآباء .

عظيمة هى فلورنسا ورائعة .

غير أن كنوزها المتراكمة

لا تعدل قيمتها نفائس «فرارا» .

إن الشعب هو الذى جعل من تلك المدينة مدينة ،
أما «فرارا»، فبفضل أمرائها أصبحت عظيمة[1] .

الأميـرة : بل الفضل للطيبين
الذين أقبلوا إلى هنا بمحض المصادفة
وجمع الحظ بيننا وبينهم .

ليـونـورا : من اليسير على المصادفة أن تفرق ما جمعت .
أما الإنسان النبيل فيجذب النبلاء إليه
ويعرف كيف يختفظ بهم ، مثلما تفعلون .
من حول شقيقك ومن حولك
تتآلف قلوب جديرة بكما
وأنتما جديران بآبائكما العظام .
هنا توقدت فى بهجة .
شعلة العلم وحرية الفكر الجميلة[2] ،
بينما كان التوحش يلقى ظله الكثيف
على العالم المحيط بكم .
كنت لا أزال طفلة ، عندما رنت أسماء هرقل
وهيبوليت فى أذنى .

---

(١) إشارة إلى أمجاد عائلة « استه » ، فقد استضاف جد الأمير الحاكم لمدينة « فرارا » ، وهو هرقل فون استه ، الشاعر بويارنو فى قصره ، كما استضاف ابنه هيبوليت الشاعر أريوستو .

(٢) تعطى الأبيات التالية صورة معبرة عن الحياة العقلية والروحية فى عصر النهضة الإيطالية .

كان أبى يكثر من الثناء

على « فرارا » ثناءه على روما وفلورنسه !

طالما اشتقت إليها ، وها أنذا الآن أعيش فيها .

هنا حل بترازكا ضيفا ، وهنا لقى الرعاية ،

وأريوست عثر هنا على نماذجه .

وما من اسم عظيم ذكرته روما

إلا وحل ضيفًا على هذا البيت .

وإنها لمزية أن تستضيف العبقرى :

إن أنت قدمت له هدية ،

رد لك الهدية بأحسن منها .

المكان الذى يحل فيه إنسان طيب

تحل فيه البركة ؛ ولا تزال كلمته وعمله

ترددان فى سمع الحفيد بعد مائة عام .

الأميرة : هذا لو كان للحفيد مثل ما لك من إحساس حى .

إنى كثيرًا ما أغبطك على هذه النعمة .

ليونورا : التى تستمعين بها فى هدوء وصفاء

متعة لا يعرفها إلا القليلون

إن قلبى ليدفعنى إلى الإفصاح

عما أحس به ملء الفؤاد .

أنت تحسين به أفضل وأعمق وتصمتين .

أنت لا يبهرك مظهر اللحظة العابرة .

ولا الذكاء يخلبك . عبثًا يحاول التملق
أن يلتصق بأذنيك .
إن فكرك يظل راسخًا ، وذوقك سليمًا .
وحكمك صائبًا ، وحظك من العظمة دائمًا عظيمًا
فأنت تعرفينها كما تعرفين نفسك .

الأميرة : أوْلى بك ألا تخلعى على هذا الملق الرفيع
ثوب الصداقة الحميمة

ليونورا : بل الصداقة عادلة ، فهى وحدها
التى تستطيع أن تقدرك حق قدرك .
دعينى كذلك أذكر للحظ والمناسبة .
دورهما فى تكوين روحك ،
إنك تملكينها حقا ، وإنك أنت فى النهاية هذه الروح ،
والدنيا كلها تكرمك أنت وشقيقتك(١)
وتعلى قدركما فوق عظيمات النساء فى زمانكما .

الأميرة : كل هذا ، يا ليونورا ، لا يؤثر علىَّ كثيرًا ،
كلما تذكرت أننا لا نساوى إلا القليل ،
وأن هذا القليل ندين به لغيرنا .
إن معرفتى باللغات القديمة ، وبأفضل ما خلفه

---

(١) إشارة إلى لوكرتسيا شقيقة الأميرة ، وقد كانت زوجة لولى عهد أوربينو ، التى كان عقمها سبب تعاستها « قارن فى ذلك المشهد الثانى من الفصل الثالث » .

لنا العالم القديم شىء أدين به لأمى .

ومع ذلك فلم تكن إحدى ابنتيها لتدانيها

فى علمها ولا فى حكمها السليم،

ولو حاولت إحدانا أن تقارن نفسها بها ،

لكانت لوكرسيا بذلك أولى منى .

كذلك أستطيع أن أؤكد لك،

أننى ما نظرت يومًا إلى ما وهبتنى الطبيعة أو أولانيه الحظ

على أنه ملك لى ، أو أننى جديرة به .

إن مما يسعد نفسى ، حين أسمع الأذكياء يتناقشون :

أن أتمكن من فهمهم وتتبع ما يريدون .

قد يكون حكمًا على رجل من رجال العصر القديم،

أو على قيمة أعماله ،

أو قد يدور الحديث عن علم نمته التجربة،

فنفع الإنسان وارتفع به فى آن ،

فى أى وجهة دار حديث هؤلاء النبلاء

وجدتنى أتتبعهم ، لأننى أحب أن أتابع الحديث .

أحب أن أشهد مناظرات الحكماء ،

وأرى كيف يعبث فى رقة بشفاه الخطباء

كلامهم عن القوى الصديقة أو القوى المخيفة

التى تحرك صدر الإنسان .

وأحب أن أرى كيف تصبح شهوة الأمراء

إلى الحكم والتوسع فى الممتلكات
موضوعًا يتـناوله المفكرون ،
وكيف تستطيع الفطنـة اللطيفـة
التى يتعهدها اللبيب بالرعاية الدقيقة
أن تعلمنا بدلاً من أن تؤذينا .

ليـونـورا : وبعد أن تنـتهى مثل هذه الأحاديث الجادة ،
يستريح السمع والوجدان
لتـذوق قوافى الشاعر ،
الذى يسكب أحب المشاعر،
فى النفس بأنغـام عذاب .
إن روحك العالية تحيط بمملكة شاسعة ،
أما أنا فأوثر أن أقيم
فى جزيرة الشعر التى تنمو فيها أشجار الغار .

الأمـيـرة : لقد أكدوا لى أن شجرة المر[1]
هى التى تؤثر أن تنمو فى هذا البلد الجميل
أكثر من غيرها من الأشجار .
وإذا كانت ربات الفن والجمال كثيرات العدد،
فيندر أن يبحث الإنسان بـينهن عن صاحبة ورفيقة ،
لأن لقاء الشاعر أحب إلى نفسه .

---

(١) يُقال : إنها الشجرة المقدسة عند إلهة الحب «فينوس» .

إنه يتجنبنا ، لا بل يبدو كأنه يهرب منا .

ويبحث عن شيء لا نعرفه .

وقد لا يعرفه هو نفسه فى نهاية المطاف .

ما أجمل أن يلقانا عندئذ فى اللحظة المواتية

وأن يتعرف فينا ، والبهجة تغمره ،

على الكنز الذى طالما بحث عنه عبثًا فى العالم البعيد .

ليونورا : لا بد لى من قبول دعابتك ،

إنها تصيبني حقًا ، ولكنها لا تصيبنى فى الصميم .

إننى أقدر كل إنسان وأعرف له فضله .

ولست أحس لتاسو بغير العدل والإنصاف .

إن نظرته لا تكاد تستقر على هذه الأرض ؛

لكن أذنه تسمع ألحان الطبيعة المنسجمة ؛

كل ما يقدمه التاريخ من كنوز ، كل ما تهديه الحياة ،

يتلقاه صدره بالحب والعرفان :

إن وجدانه يجمع كل ما تباعد وتشتت،

وإحساسه يهب الحياة لما لا حياة فيه .

كثيراً ما يضفى النبل على ما يبدو لنا وضيعًا،

والشيء الذى نقدره يصبح فى عينيه عدمًا وهباءً .

هذه هى الدائرة الساحرة،

التى يتجول فيها هذا الرجل المدهش .

ويغرينا على التجوال معه فيها

ومشاركته الحياة التى يحياها:

إنه يبدو كأنه يقترب منا ، ومع ذلك يظل عنا بعيداً؛

ويبدو عليه كأنه يتطلع إلينا،

ومن يدرى أى أشباح غريبة،

تتراءى له فى مكاننا.

الأميرة : أراك صورت الشاعر الذى يهيم فى ممالك الأحلام العذبة

في صورة لطيفة ورقيقة،

ومع هذا يبدو لى أن الواقع

يجذبه كذلك إلى بقوة ويسيطر عليه.

هذه الأغانى الجميلة التى نلقاها،

معلقة هنا وهناك على الأشجار،

أشبه بتفاحات ذهبية ، أو بنجمة المساء.

ألا ترين أنها الثمار العذبة لحب حقيقى؟

ليونورا : أنا أيضاً أبتهج بهذه الصفحات الحسان.

إن روحه الخصبة تمجد صورة واحدة

في كل أبياتِه وقصائده.

أحيانًا يفتنه سناها المضيء

فيرفعها إلى السماء المزدانة بالنجوم،

ويسجد أمامها سجود العابد

كما تفعل الملائكة فوق السحاب،

أو يسترق الخطا، ليفتش عنها فى المروج الناعسة،

ويعقد لها تاجًا من كل زهرة تصادفه.

فإذا ابتعدت المعبودة،

راح يبارك الدرب الذى وطئته قدمها الجميلة .

إنه يتخفى كالبلبل بين أغصان الأيك

ليشدو من قلب موجع

ويملأ المرج والهواء بشكواه العذبة الحنون :

إن أغنيته الساحرة تجذب الآذان ،

وكآبته المسعدة تجبر القلوب على الاستسلام .

الأميرة : وإذا أراد أن يسمى محبوبه

فسوف يسميه ليونورا .

ليونورا : إنه اسمك ، كما هو اسمى .

ولقد كان يسيئنى أن يختار اسمًا سواه .

يسعدنى أنه يستطيع بهذا المعنى المزدوج

أن يخفى عاطفته نحوك .

كما يرضينى أن يتذكرنى أيضًا

كلما نطق بهذا الاسم العذب .

بعيد عن خاطرى الآن ذلك الحب

الذى يريد أن يسيطر على المحبوب

ويملكه بلا شريك ، وتدفعه الغيرة

لأنْ يحميه من كل الأنظار .

إذا كان فى ساعات الإلهام السعيد،

ينصرف إلى التأمل فى سمو قدرك
فربما أسعده أن يلتفت
فى بعض الأحيان إلى قدرى الضئيل .
إنه لا يحبنا - واعذرينى أن أقولها لك ! -
بل يجمع ما يحبه من كل الأجواء
ليضعه فى اسم واحد نحمله
ويعبر به عن إحساسه !
يخيل إلينا أننا نحب الرجل ،
وما نحب فى الواقع إلا اسمى
ما يمكن أن نصل إليه بالحب .

الأميرة : لقد تعمقت فى هذا العلم يا ليونورا .
إنك تقولين لى أشياء لا تكاد تلمس إلا أذنى،
ولكنها لا تنفذ أبداً إلى روحى .

ليونورا : أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم[١]
ما تجرؤ مستجدة على الثرثرة به ؟!
لا بد أننى أخطئ بالغ الخطأ ،

---

(١) إشارة إلى تأثير أفلاطون فى النهضة الإيطالية ، وبخاصة فى أكاديمية فلورنسة وفى أعقابها أكاديمية «فرارا » ، وكذلك إلى تأثير الفلسفة الأفلاطونية على هذه المسرحية وعلى تفكير جوته بوجه عام . ويستطيع القارئ أن يتبين ذلك فى تردد بعض الألفاظ المعروفة فى محاورات أفلاطون مثل الإيروس (العشق) والجمال والتذكر والإشارة المستمرة إلى عالم المثل (راجع المقدمة) .

ولكن لا ، إننى لا أخطئ تمامًا ، وهذا ما أعرفه

جيداً .

إن الحب لم يكن يظهر فى هذه المدرسة النبـيلة

فى مظهر الطفل المدلل كدأبه على الدوام :

بل كان الشاب الذى تزوج بسيخة(٢)

وجلس مع الآلهة يدلى بالرأى والمشورة .

إنه لا يضطرب هنا وهناك

نزقا من قلب إلى قلب ،

ولا يعمـه فى ضلاله العذب .

ليتشبـث بالشكل والجمال ،

ولا يكفر عن نشوته العاجلة .

بالسخط والاشمئزاز .

الأمـيـرة : ها هو ذا أخى مقبلا !

فلنحاول ألا يفضحنا الحديث

حتى لا يسخر بكلامنا،

كما سخر من قبل بملبسنا .

---

(٢) أو النفس فى اللغة اليونانية ، وهى فيما تروى الأساطير زوجـة إيروس أو الحب .

المشـــهد الثانـى

(السـابـقـون - ألـفـونس)

ألفـونس : أبحث عن تاسو ، الذى لا أعثر عليه فى أى مكان ،
وحتى هنا لا أجده معكما .
هل تستطيعان أن تـنـبئا بخبر عنه ؟

الأمـيـرة : بالأمس رأيته لحظة ، واليوم لم أره .

ألفـونس : إنه يقـترف الخطأ القديم ، إذ يسعى إلى الوحـدة،
لا إلى صحبة الناس .
لئـن غفرت له فراره من زحام البشر
وإيثاره الإخلاد إلى روحه ، يسامرها فى حرية وهـدوء،
فلن أستطيع أن أغفر له
أنه يـبتعد بنفسه عن دائرة الأصدقاء .

ليـونـورا : أيها الأمير . إن لم أكن مخطئة
فسرعان ما تحول لومك إلى ثناء .
لقد رأيته اليوم من بعيد :
كان يحمل فى يده كتابًا ولوحًا

وكان يكتب ثم يمشى ثم يكتب من جديد .
كلمة عابرة قالها بالأمس لى
أحسست أنها تعلن إتمام عمله .
لم تبق أمامه غير لمسات صغيرة
ويقدم لمروعتك التى طالما أنعمت بها عليه
الهدية التى هى بها جديرية .

ألفونس : مرحباً به إن حملها إلىَّ ،
ولينل عفوى إلى أمد طويل .
بقدر ما أبدى من الاهتمام بعمله ،
وبقدر ما تسعد نفسى - ولا بد أن تسعد -
بهذا العمل العظيم،
فإن قلقى أيضاً يتزايد كل يوم .
إنه لا يفرغ منه ، ولا يستطيع أن يتمه ،
بل يغير فيه بلا انقطاع ، ويتقدم ببطء ،
ثم يتوقف من جديد ، ويخيب فيه الرجاء :
عسير على النفس أن يرى الإنسان
كيف تفلت منه المتعة،
التى ظنها قريبة منه .

الأميرة : أما أنا فأثنى على هذا التواضع ،
وأمتدح الحرص الذى يسير به
خطوة فخطوة إلى الهدف .

لم تكن أبياته لتتحد فى مجموع حتى،
حتى ترضى عنه ربات الفن والجمال
وإن نفسه لا تصبو إلى شىء
كما تصبو إلى أن يكتمل قصيده فى كل منسجم .
إنه لا يريد أن يكوم خرافة على خرافة
قد تشوق وتسحر ، لكنها تخدعك فى آخر الأمر
ويضيع صداها كما تضيع الكلمات المفككة .
دعه يا أختى ! فإن الزمن
ليس مقياساً للعمل الجيد ؛
وإذا كان للأجيال المقبلة أن تستمتع به،
فالواجب على الذين يعيشون مع الفنان أن ينسو أنفسهم .

ألفونس : فلنوحد جهودنا ، يا شقيقتى المحبوبة ،
كما فعلنا فى أغلب الأحيان ، لخيرنا المشترك !
إن تشددت عليه ، فتلطَّفى أنت معه :
وإن وجدتك مفرطة التسامح ، رحت أتعجله .
ربما وجدناه عندئذ على حين فجأة،
وقد أدرك الهدف الذى طالما تمنيناه .
هناك فليدهش الوطن ، وليدهش العالم كله
لروعة العمل الذى أتمه .
سأنال أنا نصيبى من ذلك المجد
وستتفتح له أبواب الحياة .

لا يستطيع الرجل النبـيل أن يقتصر
في ثقافته على مجال محدود .
لا بد أن يؤثر الوطن
ويؤثر العالم كله عليه .
لا بد له أن يتعلم
كيف يحتمل الثـناء والهجاء .
سوف يجد نفسه مضطراً
إلى أن يحسن معرفة نفسه وغيره،
ولن تستطيـع الوحدة أن تهـدهده
بأوهامـها التى تتملقـه .
وإذا كان العدو لا يبقى عليه
فلا يجوز للصديق أن يراعيه ؛
هنالك يجرب الشاب قدرته على الكفاح
فيحس بكيانه ، ويشعر بأنه قد أصبح رجلاً .

ليـونـورا : إذن فسوف تقدم له ، يا أمير ، كل ما تستطيع،
كما قدمت له الكثير حتى الآن .
إن الموهبة تتكون فى ظل السكون .
ودوامة الحياة هى التى تربى الطباع.
ليت وجدانه يتعلم من دروسك كما تعلم فنه !
فلا يعود يتجنب الناس ، ولا يتحول سخطه
فى نهاية الأمر إلى الخوف والحقد !

ألفـونس : لا يخاف الناس إلا من يجهلهم ،
ومن يتجنبهم سرعان ما يسىء فهمهم .
ذلك هو حاله ، وكذلك يضطربِ الوجدان الحرِ
ويحبس نفسه مع الأيام فى الأغلال .
كثيراً ما أراه يهتم بنيل رضاى
أكثر مما ينبغى لمثله ؛
ويسىء الظن بعدد كبير من الناس،
أعلم تمام العلم أنهم ليسوا أعداءه .
وإذا حدث أن فقد له خطاب
أو انتقل من عنده خادم ليخدم غيره
أو ضاعت إحدى أوراقه،
أسرع إلى الحكم بأن وراءها نية سيئة
وخيانة وحيلاً ماكرة
تريد أن تدمر مصيره .

الأمـيـرة : فلنحاول ، يا أخى ، ألا ننسى
أن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن نفسه
وإذا حدث لصديق ورفيق سفر أن جرحت قدمه ،
ألا نفضل فى هذه الحالة أن نمشى على مهل،
ونمد له يدنا عن طيب خاطر ؟

ألفـونس : الأفضل من ذلك أن نحاول شفاءه ،
ونسرع بتجربة العلاج الذى ينصح به الطبيب ،

ثم نمضى فرحين مع الرفيق المعافى،

على الطريق الجديد للحياة المستبشرة .

ومع ذلك فإننى أرجو يا أحبائى

ألا يقال عنى إننى تحملت وزر الطبيب القاسى .

إننى أفعل كل ما أستطيع ،

لكى أبث فى قلبه الثقة والأمان .

وأقدم له أمام الكثيرين

من الدلائل ما يؤكد رضاى .

فإذا جاء إلىَّ شاكيا ، أمرت على الفور بالتحقيق ،

كما فعلت أخيرًا حينما صور له الخيال

أن اللصوص قد داهموا حجرته،

فإذا لم يتم الكشف عن شىء

شرحت له رأيى فى اتزان .

وكما أن على الإنسان أن يجرب كل شىء ،

فإننى أجرب الصبر مع تاسو ، لأنه يستحقه :

وإنى لأعلم أنكما تؤيدانى .

لقد أتيت بكما إلى الريف،

وسأعود إلى المدينة فى المساء .

سوف تريان أنطونيو لبضع لحظات ،

إذ سيحضر من روما ليأخذنى معه .

أمامنا أمور كثيرة لا بد من بحثها والانتهاء منها ؛

وقرارات لا بد من اتخاذها ، ورسائل لا بد من كتابتها ؛
وكل هذا يدعونى للرجوع إلى المدينة .

الأميرة : هل تأذن لنا بمصاحبتك

ألفونس : بل ابقيا في بلرجواردو ، وسافرا معًا إلى كونساندولى[١] !
واستمتعا بالأيام الجميلة كما يحلو لكما .

الأميرة : ألا يمكنك حقًا أن تبقى معنا ؟
وتدبر هنا شئونك كما تدبرها فى المدينة ؟

ليونورا : وهل تحرمنا على الفور من أنطونيو،
الذى ننتظر منه أن يروى الكثير عما شاهده فى روما؟

ألفونس : مستحيل ما تطلبان يا صغيرتىَّ ،
ومع ذلك فسأعود معه ، بأسرع ما نستطيع :
وعندئذ تستمعان إلى حكاياته ، وتساعدانى على مكافأته
وهو الذى يبذل فى خدمتي الكثير .
فإذا فرغنا من الحديث ،
فليأت الضيوف كجماعات النحل،
ليشيعوا الفرح فى حدائقنا،
ولألق تحت الظلال الرطبة
الجمال الذى أُفتش عنه ويحنّ قلبى إليه .

---

(١) أحد قصور المتعة والترف بالقرب من مدينة «فرارا» .

ليونورا : سنحاول أن ننظر من خلال الأصابع[١]

ألفونس : وسترين إلى أى حد يذهب بى التسامح .

الأميرة : (وهى تستدير ناحية المسرح) :

أرى تاسو يتقدم نحونا من مدة طويلة

إنه يسير بخطى بطيئة ، ويقف كالمتردد

فجأة بلا حراك .

ثم يعود فيحث السير نحونا ،

وها هو ذا يتوقف من جديد .

ألفونس : حين تريانه يتأمل ويبدع :

فلا تزعجا أحلامه ، بل اتركاه يتجول كما يشاء .

ليونورا : لا ، لقد رآنا ، وها هو ذا قادم نحونا .

---

(١) أى سنحاول أن نغمض أعيننا .

المشـــهد الثالث

(السـابقـون - تاسـو)

تاســـو : (ومعه كتاب مجلد بالرق) :

ها أنا ذا أتقدم فى بطء ، لأعطيك كتابًا،

وما زلت أتردد فى تسليمه إليك .

أعلم تمام العلم أنه لا يزال ناقصاً،

وإنْ بدا عليه أنه تم وانتهى .

إذا كنت قد أحسست بالهم

لأنني أهـديه إليك قبل إتمامه،

فقد استولى عليّ هم جديد

من أن أبدو شديد الخوف،

أو أظهر فى مظهر الجاحد .

وكما يستطيع امرؤ أن يقول : ها أنا ذا !

فيفرح به الأصدقاء ويسامحونه

كذلك لا أملك أنا أيضًا إلا أن أقول : خذه من يدى !

(يقدم له الكتاب)

ألفـونس : أنت تفاجئـنى بهديتك،

وتجعل من هذا اليوم الجميل عيـداً .

ها أنا أحمل الكتاب أخيراً بين يدى،

وأعده على نحو من الأنحاء كتابى !

طالما تمنيت أن تحزم أمرك

وتقول فى النهاية : هاك الكتاب ! لقد اكتفيت !

تاســـو : إن رضيتم به ، فقد تحقق غرضى ،

لأنه كتابكم ، من كل ناحية .

لو أننى فكَّرت فى الجهد الذى بذلته فيه ،

ورأيت الخطوط التى رسمتها ريشتى ،

لقلت لنفسى : إن هـذا الكتاب كتابى .

ولكننى كلما أمعنت النظر ،

وبحثت عما يعطى هذا القصيد

قيمته العميقة ومنزلته العالية

عرفت أننى لم أستمده إلا منكم .

إن كانت الطبيعة الحنون قد وهبتـنى

نعمة الشعر الرائعة ،

فقد شاء القدر العنيـد

أن يبطش بى بطشه القاسى ؛

وإن كان العالم بكل ما فيه من جمال

قد سحر عيون الصبى الصغير،

فسرعان ما كدر روحه الشاب
ما حاق بأبويه الحبيبين
من بؤس لم يستحقاه[1] .
كنت كلما تفتحت شفتاى للغناء
انسكبت منهما الأغنية الحزينة ،
ورحت أصاحب بالأنغام الهامسة
آلام الأب وعذاب الأم .
أنت وحدك الذى خلصتنى من هذه الحياة الخانقة،
ورفعتنى إلى سماء الحرية الجميلة
أنت الذى أزحت الهموم عن جبهتى،
وحررت روحى فرفرف جناحاها بالغناء ؛
وسواء ما كان الجزاء الذى ينتظر كتابى
فإننى أدين لك به ، لأنه منك وإليك .

ألفونس : تستحق الحمد مرتين ،
فأنت تكرم نفسك فى تواضع ،
وتكرمنا سمعك .

تاســـو : آه لو استطعت أن أعبر لك

(١) إشارة إلى ما لقيه أبوه برناردو من قسوة القدر . فقد كان شاعر البلاط عند أحد النبلاء فى نابولى ، ثم أهين وطرد من البلاد ، واضطرت زوجته إلى البقاء في مدينة « سورنت » لتعيش فى بؤس مع طفليها توركوانو (وهو شاعرنا تاسو) وشقيقته كورنيليا .

عن إحساسى الخالص بأن ما أحمله لك
إنما يأتى منك أنت !
ذلك الشاب الذى لم يكن قد جرت شيئًا ،
أكان فى مقدوره أن يستمد هذه القصيدة من نفسه ؟
هل كان فى استطاعته أن يدرك
كيف تدبر الحرب الخاطفة تدبيرًا حكيمًا ؟
فنون البراعة فى السلاح ، التى يبديها الأبطال
فى اليوم الموعود
ألمعية القائد وشجاعة الفرسان ،
وكيف يتنافس الدهاء مع اليقظة فى النزال ،
ألم تكن أنت . أيها الأمير الحكيم الشجاع ،
من بث فى نفسى هذا كله ، وكأنك شيطانى الملهم
الذى يحلو له أن يكشف عن طبيعته السامية
فى جسد إنسان فانٍ ؟

الأميرة : تمتع الآن إذن بالعمل الذى أسعدتنا به !

ألفونس : ابتهج بحفاوة الطيبين !

ليونورا : وافرح بالمجد الذى لا حد له !

تاســو : هذه اللحظة تكفينى .
ما فكرت إلا فيكم ، حين تأملت وكتبت :
رضاكم كان أقصى مناى ،
وإسعادكم كان أسمى أهدافى .

من لا يرى العالم بعيون أصدقائه

لا يستحق أن يلتفت العالم إليه .

هنا وطني ، وهنا دائرة الصحاب

الذين ترتاح نفسي إلى المقام بينهم .

هنا تصغي روحي، وتلتقط كل إشارة،

هنا تتكلم التجربة، والمعرفة، والذوق،

أجل، وهنا تضل الفنان وتملؤه ذعراً :

أمّا من يشبهكم، فهو وحده الذى يفهم ويحس،

وهو وحده الذى يحق له أن يحكم ويثيب !

ألفونس : إذا كنا نمثل العالم فى الحاضر والمستقبل

فلا يخلق بنا أن نأخذ بغير أن نعطى .

العلامة الجميلة، التى تشرف الشاعر

والتى يراها البطل نفسه – وهو الذى يحتاج إليها

على الدوام – تتوج رأسه فلا يشعر بالحسد،

أراها هنا تزين جبهة سلفك العظيم .

(مشيراً إلى تمثال فرجيل النصفى)

أكانت هى المصادفة، أم هى يد الجان

التى عقدتها وجاءت بها ؟ إنى لا أراها هنا عبثاً.

أسمع فرجيل يقول : ما الداعى لتكريم الموتى ؟

لقد لقوا فى الحياة جزاءهم، وأخذوا نصيبهم من
السعادة؛
إن كنتم حقًا تعجبون بنا وتبغون أن تكرمونا،
فأعطوا الأحياء كذلك نصيبهم .
يكفى ما وضعوه على تمثالى المرمرى من أكاليل -
أما الغصن الأخضر فقد خلق للحياة .
(ألفونس يشير إلى شقيقته فتنزع الإكليل من فوق
تمثال فرجيل وتقترب من تاسو الذى يتراجع إلى
الوراء)

ليونورا : أترفض ؟ أنظر أى يد تمد إليك،
التاج الجميل الذى لا يذبل !

تاسو : دعونى أتردد! فلست أدرى
كيف يمكننى أن أعيش بعد هذه اللحظة .

ألفونس : عش لتستمتع بالهدية الرائعة
التى أفزعك فى اللحظة الأولى أن تنالها .

الأميرة : (وهى ترفع الإكليل إلى أعلى) :
أتح لى السعادة النادرة يا تاسو،
لأعبر لك فى صمت، عما يدور فى فكرى

تاسو : هذا العبء الجميل من يديك الغاليتين
دعينى أتلقاه راكعًا على رأسى الضعيف .
(يركع على قدميه . الأميرة تضع التاج على رأسه)

ليونورا : (مصفقة) ليعش من يتلقى الإكليل لأول مرة !

كم يزين رأس الرجل المتواضع !

(تاسو ينهض واقفًا) .

ألفونس : ليس إلا رمزًا لذلك التاج،

الذى سيجلل جبهتك فى «الكابيتول» .

الأميرة : هناك ستحييك الهتافات العالية؛

أما هنا فتكافئك الصداقة بشفاه هامسة .

تاسو : انزعوه من على جبهتى، أبعدوه !

إنه يلهب خصلات شعرى !

كمثل شعاع الشمس الحارق الذى يقع على رأسى

أحس به يبدد قدرتى على التفكير .

وأشعر بحرارة الحمى تعصف بدمى .

أعذرونى . إنه كثير على !

ليونورا : بل إن هذا الغصن يحمى رأس شاعر

يسير فى بلاد المجد الدافئة،

ويرطب جبهته .

تاسو : لست جديرًا بهذا الترطيب

الذى لا يخلق إلا بجباه الأبطال .

أيتها الآلهة ! ارفعيه بين السحب

حتى يظل عاليًا خفاقًا لا يدركه أحد !

واجعلى حياتى سعيًا خالدًا نحو هذا الهدف !

ألفونس : من نال متع الحياة الصافية فى سن الشباب،
تعلم فى ربيع العمر كيف يقدر قيمتها العالية؛
ومن ذاق طعمها وهو فى عنفوان صباه،
لم يشعر بالحرمان مما امتلكه ذات يوم؛
ومن ملك فقد تحصن .

تاسو : ومن أراد أن يتحصن ،
وجب أن يحس في قلبه بالقوة التي لا تخونه أبداً .
آه ! إنها تخونني الآن !
هذه القوة المفطورة تتخلى عنى
وهى التى علمتنى كيف أصمد للقدر
وأواجه الظلم فى كبرياء .
هل أذاب الفرح قوتى، هل بددت النشوة النخاع
من أعضائى ؟
ركبتاى تسقطان بى ! ها أنت ذى أيتها الأميرة
ترينني راكعًا أمامك للمرة الثانية !
استجيبى لدعائى : انزعى هذا التاج عن رأسى !
حتى أحس كأننى أستيقظ من حلم جميل،
لأبدأ حياة منتعشة جديدة.

الأميرة : ما دمت قادراً على حمل الموهبة التى أسبغتها عليك الآلهة
بقلب متواضع رضى،

فتعلم كذلك كيف تحمل هذه الفروع الخضراء،

فهى أجمل ما نستطيع أن نهديه إليك .

من يلامس هذا الشرف رأسه مرة،

فسوف يرف حول جبهته إلى أبد الآبدين .

تاســـو : إذن فاتركينى أغادر خجلاً هذا المكان !

دعينى أخفى سعادتى فى الغابة العميقة،

كما تعودت أن أخفى فيها أحزانى .

أريد أن أتجول هناك وحيداً،

فلا تذكرنى عين بالسعادة التى لا أستحقها .

فإذا رأيت صورة رجل يحمل تاجه الرائع،

منعكسة على مرآة نبع صافية،

يتنكر فى سكون بين الأشجار والصخور

وتسقط عليه ظلال السماء الزرقاء

فسوف يبدو لى كأنى أرى الإليزيوم[١]

منعكساً على صفحة المياه الساحرة .

هناك أتأمل فى هدوء وأسأل نفسى :

ظل مَنْ هذا ؟ أهو الشاب الذى عاش قديماً ؟

أهو الذى يحمل تاجاً رائعاً على رأسه ؟

من الذى يقول لى اسمه ؟ من يحكى أمجاده ؟

---

(١) هو فى الأساطير الإغريقية جنة السعداء، ومقام المنعمين الخالدين .

ويطول بى الانتظار فأتمنى

لو أن شاباً آخر جاء، وبعده ثان

وجمع بينهما حديث ودود !

آه لو أرى الأبطال، لو أرى شعراء العصر القديم،

مجتمعين حول هذا النبع !

آه لو استطعت أن أراهم هنا،

متحدين إلى الأبد، كما كانوا فى عالم الأحياء .

كذلك تؤلف قوة المغنطيس بين الحديد والحديد،

كما يؤلف النزوع الواحد بين البطل والشاعر .

لقد نسي هوميروس نفسه، ووهب حياته كلها

في تأمل رجلين اثنين،

والإسكندر لن يسعد فى الإليزيوم

حتى يلتقي بأخيل وهوميروس .

آه لو استطعت أن أكون معهم،

لأرى كيف تتحد أعظم النفوس !

ليونورا : أفق ! أفق ! لا تحملنا على الإحساس

بأنك تنكر الحاضر أو تتجاهله .

تاســو : بل إن الحاضر هو الذى يسمو بى،

وإن بدوت فى الظاهر غائباً عن البال،

فإن روحى فى أوج النشوة .

الأمـيـرة : تسعد نفسى حين أسمعك تحادث الأرواح،

بصوت يفيض إنسانية، وأنصت إليك فى سرور .

(تتقدم إحدى الوصيفات من الأمير وتهمس شيئًا

فى أذنه) .

ألفـونس : لقد حضر ! اختار اللحظة المناسبة !

أنطونيو ! - أحضريه إلي هنا ! - ولكن ها هو قادم !

المشـــهد الرابع

(السـابقـون - أنـطـونيـو)

ألفـونس : مرحبًا بك ! يا من جئتنا

بشخصك وبالبشارة السعيدة .

الأمـيـرة : تقبل تحيتنا !

أنطونيـو : لا أكاد أقوى على التعبير عما يغمرنى من فرح

وأنا أجد نفسى بينكم من جديد .

كل ما حرمته وطال حرمانى،

أراه الآن مرة أخرى أمامكم .

يبدو عليكم الرضا بما فعلتُ، وما حققت يداى؛

وهكذا أرانى، وقد كوفئت على ما لقيت من متاعب،

على أيام ثابرت فيها فارغ الصبر،

وأيام أضعتها عن قصد وتدبير .

الآن قد حصلنا على ما نتمناه

ولم يعد هناك محل للنزاع .

ليونورا : أنا أيضاً أحبيك، وإن كان يحزننى

أنك لم تأت إلا فى اليوم الذى ينبغى علىّ أن أسافر فيه .

أنطونيو : ألكى لا تتم سعادتى

تسلبينها أجمل نصيب ؟

تاســـو : وأنا كذلك أحبيك ! وأرجو أن أجد السعادة

بالقرب من الرجل المجرب الحكيم .

أنطونيو : ستجد منى الصدق والإخلاص،

إذا استطعت أن تلقى من دنياك نظرة على دنياى .

ألفونس : على الرغم من أنك أخبرتنى فى رسالتك

بما بذلت من جهود وما حققت من نجاح،

فما زلت أريد أن أسألك

عن الوسائل التى أنجزت بها مهمتك .

هناك على تلك الأرض العجيبة

يتحتم على الإنسان أن يحسب خطاه

إذا أراد أن يصل إلى الهدف المقصود .

ومن لا يفكر إلا فى مصلحة سيده،

يجد نفسه فى روما فى موقف عصيب :

فروما تريد أن تأخذ كل شىء، ولا تعطى شيئاً،

وإذا قصدها الإنسان لينال شيئاً

لم يفز منها بغير ما جاء به معه،

والسعيد من لا يخرج منها فارغ اليدين .

أنطونيو : أيها الأمير ! لم يكن سلوكى ولا براعتى
هما اللذان أعانانى على تحقيق مشيئتك .
فأى إنسان مهما كانت فطنته،
لا يجد فى الفاتيكان من يتفوق عليه ؟
اتفقت ظروف كثيرة
استطعت أن أستغلها لصالحنا .
إن «جريجور»[1] يقدرك، ويحبك، ويباركك .
هذا الشيخ الهرم، أجدر من يحمل عبء التاج على
رأسه،
يطيب له أن يتذكر ذلك اليوم البعيد
عندما عانقك وضمك إلى صدره .
هذا الرجل، الذى يفهم كيف يميز بين الرجال،
يعرفك جيداً ويضعك فى منزلة عالية !
ولذلك فقد دفعه حبه لك، على أن يفعل لك الكثير .

ألفونس : يسعدنى أن يحسن الظن بى
على قدر إخلاص نيته .
غير أنك تعلم تمام العلم
أن من يقف فى الفاتيكان وينظر من علٍ إلى الممالك
يراها ضئيلة تحت قدميه،

---

(١) المقصود هو البابا جريجور الثالث عشر .

فما بالك بمن ينظر إلى الأمراء والبشر؟

صارحنى إذن، ما الذى أعانك فى مهمتك؟

أنطونيو : حسناً ! ما دمت تريد ذلك، فهى حكمة البابا العالية .

إنه يرى الصغير صغيراً، والعظيم عظيماً .

ولكى يحكم العالم، يحلو له

أن يتساهل مع جيرانه عن طيب خاطر .

إنه يقدر الأرض التى يتركها لك

كما يقدر صداقتك حق التقدير .

إنه يريد أن تظل إيطاليا هادئة،

وأن يكون جيرانه أصدقاءه،

ويسود السلام على حدوده

حتى يستطيع المسيحيون أن يكونوا قوة

تتحد تحت قيادته، لتقضى على الأتراك والملحدين .

الأميرة : هل هناك أحد يعرف الرجال المقربين إليه،

والذين يؤثرهم بالمودة والألفة ؟

أنطونيو : الرجل المجرب وحده هو الذى يملك سمعه، والنشيط

هو الذى ينال ثقته ورضاه .

الدولة التى خدمها وهو شاب،

يحكمها الآن ويؤثر على البلاط،

الذى رآه وعرفه، وكثيراً ما ساس أموره

عندما كان رسولاً إليه منذ سنوات .

إن نظرته النافذة تحيط بالعالم كله،

كما تعرف مصلحة بلاده .

من رآه وهو يدبر شئون الحكم أثنى عليه،

وأسعده أن تكشف الأيام

عما أعده فى صبر وصمت، حتى حققه .

ما من مشهد فى العالم أجمل

من أن يرى الإنسان أميرًا يحكم عن بصيرة

ومملكة يطيع فيها كل فرد وهو فخور،

ويؤمن بأنه لا يخدم إلا نفسه،

لأنه لا يأمر إلا بالحق والإنصاف .

ليونورا : ما أشد شوقى لمعرفة هذا العالم عن قرب !

ألفونس : وللمشاركة بالفعل فيه بغير جدال ؟

فمثل ليونورا لن تقنع بالتأمل من بعيد .

كم يكون جميلاً يا صديقتى، فى بعض الأحيان،

أن نشارك بأيدينا الرقيقة فى لعبة الصراع

الدائرة بين الدولة . أليس كذلك ؟

ليونورا : لـ (ألفونس): إنك تريد أن تثيرنى، ولكن بغير طائل .

ألفونس : ألستُ مدينًا لك بهذا من قديم الأيام؟

ليونورا : لا بأس، ولأبق أنا اليوم مدينة لك !

معذرة، ولا تقاطع أسئلتى .

لـ (أنطونيو) : هل فعل الكثير من أجل أبويه ؟

أنطونيو : لم يفعل أكثر مما تقضى به التقاليد .

إن الحاكم الذى لا يعرف كيف يرعى شئون أهله،

يلومه الشعب نفسه على ذلك

إن جريجور يعرف كيف ينفع أقاربه،

الذين خدموا الدولة كرجال أشداء،

فى هدوء واعتدال،

وبذلك يؤدى واجبين متلازمين

بلفتة واحدة .

تاســـو : هل تسعد المعرفة أيضًا، ويسعد الفن برعايته ؟

وهل يحذو فى ذلك حذو الأمراء العظام فى قديم

العصور ؟

أنطونيو : إنه يكرم المعرفة بقدر ما تفيد فى تدبير شئون الحكم،

وتعلم الإنسان أن يتعرف الشعوب؛

ويقدر الفن، بقدر ما يشيع الزينة والجمال،

ويضفى البهاء والروعة على روما،

ويجعل من قصوره ومعابده معجزات على الأرض .

لأنه لا يسمح لشىء حوله أن يعيش فى اللهو والفراغ !

فلا بد لمن يريد أن يثبت قيمته من أن يعمل ويخدم .

ألفونس : وهل تعتقد أننا نستطيع عن قريب أن ننهى قضيتنا،
قبل أن يخلقوا لنا المصاعب هنا وهناك ؟

أنطونيو : إن لم يستطع توقيعك،
أو بعض الخطابات التى تحررها بيدك
أن تفض هذا النزاع
فلا بد أن أكون مخطئًا تمام الخطأ .

ألفونس : فلأحى إذن هذه الأيام التى أحياها
ولتكن أيام سعادة وفوز .
أرى حدودى قد اتسعت وأمنت .
أديت هذا العمل بغير أن تجرد سيفًا،
واستحققت عليه تاج المدينة .
أريد من سيداتنا أن يعقدنه من فروع البلوط الناضرة
وأن يضعنه على جبهتك مع إشراقة الفجر الجميل .
تاسو أيضًا سخا علينا فى العطاء
لقد فتح لنا بيت المقدس، وأخجل بذلك المسيحيين،
وأدرك الهدف النائى والمقصد الرفيع
بالجهد الشاق والحماس البهيج،
وها أنت ذا ترى التاج يزين رأسه .

أنطونيو : أنت بهذا تكشف لى اللغز .
فقد عجبت إذ رأيت رأسين متوجين
وأنا فى طريقى إلى هذا المكان .

تاســـو : إن كنت ترى سعادتى أمام عينيك

فكم أتمنى لو استطعت أن ترى

بالنظرة نفسها وجدانى الخجلان .

أنطونيـو : كنت أعرف دائمًا أن ألفونس

عندما يكافئ، يجاوز كل الحدود

وأنت الآن تتعلم بدورك

ما يعلمه المقربون منه .

الأمـيـرة : ستعرف عندما تطلع على العمل الذى أنجزه،

أننا كنا معتدلين منصفين .

لسنا هنا إلا أول الشهود

على المجد الذى لن يبخل به العالم عليه،

والذى سيغدقه عليه المستقبل عشرات الأضعاف .

أنطونيـو : إن رعايتكم له هى التى تضمن له المجد

ومن ذا يخامره الشك حين تكافئون ؟

ولكن خبرينى، من الذى وضع هذا الإكليل على

رأس أريوست ؟

ليـونـورا : هذه اليد .

أنطونيـو : وقد أحسنت صنعًا فهو يزينه

بأجمل مما كان للغار نفسه أن يفعل .

كالطبيعة التى تدثر صدرها الغنى العميق

بثوب أخضر بهيج،

كذلك يدثر برداء الخرافة المتألق
كل ما يجعل الإنسان محبوبًا وكريمًا .
القناعة، والتجربة، والفهم،
قوة العقل، والذوق، والحس الصافى
بالخير الحق، تبدو فى أغانيه كأنها رموز،
ومع ذلك تسرى فيها حياة شخصية،
وكأنها تستريح فى ظلال الأشجار المزدهرة،
تغطيها ثلوج الزهرات الخفيفة الحمل، وتتوجها
الورود،
بينما تحيط بها آلهة الحب العابثة،
وتلعب لعبها الساحر كالأطفال .
نبع الفيض يهمس بجانبها
ويرينا أسماكًا عجيبة الألوان،
الهواء يزدحم بالطيور النادرة
والأيكة والمرعى بالقطعان الغريبة
الخبث يتصنت بين الأشجار، ويتكشف ثم يتخفى،
والحكمة التى يرن صوتها فى سحابة ذهبية
ترسل عباراتها السامية من حين إلى حين،
بينما يبدو كأن الجنون يهذى فى وحشية
على قيثارة محكمة الأوتار
ويلتزم مع ذلك بإيقاع الأنغام .

من أحس أنه جدير بأن يضع نفسه بجانب هذا الرجل،

فقد استحق على جسارته هذا الإكليل،

اعذرونى إذا كنت أحس بالحماس يغمرنى،

وأندفع كالملهم النشوان، فلا أفكر فى الزمان أو المكان

ولا أتدبر ما أقول؛

فهؤلاء الشعراء، وهذه الأكاليل،

وهذه الثياب البديعة على نسائنا الجميلات،

تنسينى نفسي وتنقلنى إلى عالم غريب .

الأميرة : من عرف كيف يقدر فضلاً واحداً ،

لم يعجزه أن يقدر فضلاً آخر .

سيكون عليك أن تكشف لنا فى قصائد تاسو

عما نشعر به وتفهمه أنت وحدك .

ألفونس : تعال يا أنطونيو ! ما زالت هناك أشياء كثيرة، أحب

أن أسألك عنها .

بعدها تستطيع أن تفرغ للنساء إلى أن تغرب الشمس .

تعال ! الوداع .

(أنطونيو يتبع الأمير، وتاسو يتبع السيدتين) .

الفصل الثانى

قاعة

المشهد الأول

(الأميرة - تاسو)

تاسو : خطواتى تتبعك مترددة يا أميرتى،
وأفكار بلا قيد ولا نظام تضطرب فى روحى .
يبدو لى كأنى أرى الوحدة تشير إلىّ
وتهمس قائلة فى صوت حنون :
تعال أخلصك من هذه الشكوك التى تثور فى صدرك .
غير أنى حين أنظر إليك،
وتسمع أذنى المتلهفة كلمة واحدة من شفتيك
يتجلى لى نهار جديد
وتتكسر عنى الأغلال .
أريد أن أعترف لك
بأن الرجل الذى جاءنا على غير انتظار،
قد أيقظنى بلا رحمة من حلم جميل؛

إن وجوده وكلماته قد صدمتنى على نحو غريب،
حتى لأشعر كأننى نفسان تتصارعان فى كيانى،
وأننى بدأت أرتبك وأتنازع مع ذاتى .

الأمـيـرة : من المستحيل على صديق قديم
طالت غيبته وعاش حياة غريبة
أن يعود فى اللحظة نفسها، التى يرانا فيها
الصديق نفسه الذى عرفناه من قبل .
إنه فى صميم قلبه لم يزل كما كان؛
انتظر حتى نقضى معه أياماً قليلة،
وسوف تتناغم الأوتار هنا وهناك،
ويؤلف بينها الانسجام السعيد .
فإذا تم له كذلك أن يتعرف
على العمل الذى حققته فى هذه الفترة،
فلن يتردد فى أن يضعك إلى جانب الشاعر
الذى يعارضك به الآن ويصوره فى صورة العملاق .

تاســـــو : آه يا أميرتى ! إن ثناءه على أريوست
لم يسئ إلىّ بل أسعدنى .
ذلك أن عزاءنا نحن الشعراء،
أن نجد الناس يمتدحون الرجل،
الذى نعده المثل العظيم .
هنالك يهمس الواحد منا لنفسه فى الخفاء :

إن استطعت أن تدرك نصيباً من قيمته
فلا شك أنك ستنال نصيباً من مجده .
لا . إن ما أثار قلبى من الأعماق،
ولا يزال يملأ نفسى كلها،
هى أشباح ذلك العالم المهول،
التى تلتف حول رجل عظيم بالغ الذكاء
يرسم لها المسار كأنه نصف إله .
لقد استمعت فى لهفة واستمتاع
إلى الكلمات الرصينة، تخرج من فم الرجل الحكيم،
ولكن آه ! لقد كنت كلما أمعنت فى الانتباه
أسقط شيئًا فشيئًا فى نظر نفسى،
حتى خشيت أن أتلاشى كالصدى على الصخور،
وأن أضيع كالرنين أو كالعدم وأفقد ذاتى .

الأميرة : وكنت قبل ذلك بقليل تحس إحساساً صافياً
بأن البطل والشاعر متلازمان،
وأن البطل والشاعر يبحث أحدهما عن الآخر
ومن المستحيل أن يحسد أحدهما صاحبه .
حقًا إن الفعل الذى تحتفل به الأغنية
شىء رائع وعظيم، غير أنه لا يقل عن ذلك جمالاً
أن تحمل الأغنية للأجيال القادمة،
روعة الأعمال الكبار .

حاول وأنت تعيش فى مملكة صغيرة ترعاك،
أن تقنع بالنظر إلى العالم المضطرب
نظرة المتأمل الذى يقف على الشاطئ .

تاســـو : ألم أفتح عينى هنا لأول مرة فى دهشة
لأرى كيف يكافئون الرجل الشجاع مكافأة رائعة ؟
أتيت إلى هنا كصبى غرير،
فى وقت كانت فيه الاحتفالات والأعياد
تكاد تجعل من «فرارا» مركز الشرف والأمجاد .
يا لذلك المشهد البديع ! حول الميدان المتسع،
الذى ستدور عليه ألعاب الفروسية الرائعة،
كانت هناك دائرة يصعب أن تشرق الشمس على
مثلها مرتين .
هنالك أجمل النساء كن يجلسن متراصات،
وكان يجلس أفضل الرجال فى هذا الزمان .
راحت النظرة المدهوشة تستعرض الجمع النبيل
وهتفت الأصوات : «هؤلاء جميعًا أرسلهم الوطن
إلى هنا، أرسلتهم الأرض الواحدة، الضيقة،
التى تحيط بها البحار».
إنهم جميعًا يؤلفون أروع محكمة،
فصلت فى الشرف، والحق، والفضيلة .
إن تأملتهم واحدًا واحدًا لم تجد

من يحتاج أن يخجل من جاره !
ثم فتحت الحواجز، فدقت أرجل الخيول
ولمعت الخوذات والدروع،
واندفع الفرسان، ودوت الطبول
وتطاير الشرر وصلصلت السهام،
حين ارتطمت بالخوذات والدروع،
وثارت دوامات الغبار
فغطت مجد المنتصر وعار المهزوم .
آه ! دعيني أسدل ستاراً على هذا المشهد الناصع
حتى لا أشعر فى هذه اللحظة الجميلة
بفداحة الإحساس بهوانى .

الأميرة : إن كانت تلك الجماعة النبيلة وتلك الأمجاد،
قد أشعلت فى نفسك لهيب الطموح والاجتهاد،
فقد كان فى استطاعتى، يا صديقى الشاب،
أن أعلمك فى ذلك الحين درساً صامتاً فى الصبر
والاحتمال .
هذه الأعياد التى تثنى عليها،
والتى لم تنقطع مئات الألسنة فى ذلك الحين عن
امتداحها لى،
لم أرها قط . كنت أرقد فى مكان منعزل،

حيث تضيع آخر أصداء الفرح البعيد دون أن يعكرها

شيء،

أعانى آلام المرض وتضنينى الأفكار الحزينة .

كان الموت يتمثل أمامى ناشراً جناحيه،

ويخفى العالم الجديد إلى الأبد عن عينى .

ثم بدأ يبتعد فى بطء، لأرى ألوان الحياة الزاهية،

شاحبة لا تزال وإن كانت رقيقة

وكأنى أراها من خلال قناع .

رأيت الصور الحية تتحرك ناعمة من جديد .

كنت أغادر غرفة المرض لأول مرة، مستندة على

وصيفاتى،

حين أقبلت لوكريتسيا فى بهجة الشباب

وهى تسحبك من يدك .

كنت فى حياتى الجديدة

أول وجه مجهول يلاقينى .

هنالك رجوت الكثير من أجلك ومن أجلى،

وإلى هذه اللحظة لم يخب الرجاء .

تاســـو : وأنا، أنا الذى أعيانى الزحام المختلط،

وأعشى عينى بريق المجد، واضطربت فى نفسى

الأحاسيس .

كنت أسير صامتًا إلى جانب شقيقتك فى طرقات
القصر الهادئة .
حتي دخلت الحجرة التى طلعت علينا فيها، مستندة
على وصيفاتك -
يا لها من لحظة فى حياتى ! آه فلتغفرى لى !
فكما ينعم القرب من الآلهة بالشفاء
على المفتون بالوهم والخيال،
كذلك شفتنى نظرة فى عينيك،
من كل أوهام الخيال وزيف الطموح والاشتهاء .
من قبل كانت أشواقي الغريرة
موزعة بين آلاف الأشياء
فثبت خجلاً إلى نفسى،
وتعلمت أن أحب ما يستحق الحب .
كذلك يبحث الإنسان عبثًا عن لؤلؤة
فى رمال البحر المترامية، بينما هى مستكنة فى جوف
محارة .
الأميرة : بدأنا نعيش أيامًا سعيدة،
ولولا أن أمير أوربينو حرمنا من شقيقتى
لقضينا السنوات فى سعادة حلوة صافية .
وها نحن وا أسفاه نفتقد الكثير؛

نفتقد الروح المرحة، والقلب الممتلئ بالشباب والحياة،
والخيال الخصب، بعد أن ذهبت عنا السيدة الحبية .

تاســـو : أعرف أن إنسانًا لم يستطع
أن يعوضك عن تلك البهجة الصافية
منذ ذلك اليوم الذى رحلت فيه .
كم مزق هذا فؤادى !
كم شكوت للغابة الصامتة ما أقاسيه من أجلك !
كم هتفت صائحًا : هل من حق هذه الأخت وحدها
أن تشغل قلبها الخالى؟!
أما من قلب آخر يستحق أن تثق فيه ؟
أما من روح أخرى تشعر معها بالانسجام ؟
هل انطفأ العقل وخمد الخيال ؟
ومهما يكن حظ هذه السيدة من الكمال،
فهل كانت هى وحدها كل شىء ؟
غفرانك يا أميرتى ! فقد كنت أحيانًا أفكر فى نفسى،
وأتمنى أن أصبح شيئًا بالنسبة إليك .
شيئًا قليلاً بالطبع، ولكنه شىء أحققه بالفعل
لا بالكلام..
وتبين حياتى كيف وهب لك قلبى نفسه فى صمت .
غير أننى لم أنجح فى هذا،
فكثيرًا ما دفعنى الخطأ إلى ارتكاب ما يؤلمك،

وكثيراً ما أهنت الرجل الذى أوليته رعايتك
وأشعت بغبائى التعقيد والاضطراب
فيما أردت له التبسيط والنظام،
وفى كل لحظة حاولت أن أقترب فيها منك
أحسست بأننى أبتعد عنك وأزداد ابتعاداً .

الأميرة : أنا ما أسأت فهم نيتك أبدًا يا تاسو،
بل أعلم كيف تسعى إلى إيذاء نفسك بنفسك .
وبينما عرفت أختى كيف تحيا مع الناس وتأخذهم على علاتهم،
فما زلت فى حاجة إلى سنين عديدة، حتى تفتح
قلبك لصديق واحد .

تاســـو : عاتبينى كما تشائين . ولكن خبرينى
أين هو الرجل، أين هى المرأة،
التى أجرؤ على أن أفتح لها صدرى
وأتكلم معها فى حرية كما أفعل معك ؟

الأميرة : عليك أن تضع ثقتك فى أخى .

تاســـو : إنه أميرى ! - ولكن لا تظنى
أن الرغبة العارمة فى الحرية تنسينى نفسى .
إن الإنسان لم يولد ليكون حراً،
وما من شىء يمكن أن يسعد النبيل
كما يسعده أن يخدم الأمير الذى يجله .

إن ألفونس سيدى، وأنا أشعر
بكل ما فى هذه الكلمة الكبيرة من معنى .
إن علىّ أن أتعلم كيف أسكت حين يتكلم،
وكيف أطيع حين يأمر،
مهما عارضه عقلى وقلبى .

الأميرة : إن أخى يختلف عن ذلك تمامًا .
ولكن ما دام أنطونيو قد رجع إلينا
فستجد فيه الصديق العاقل الذى تطمئن إليه .

تاسو : كنت أطمع فى هذا من قبل، أما الآن فقد كدت أيأس .
كم كنت أرجو أن أتعلم من صحبته،
وأنتفع بمشورته فى ألف شىء !
أستطيع أن أقول إن لديه كل ما ينقصنى .
ومع ذلك فإن كانت الآلهة كلها قد أقبلت
لتقدم الهدايا إلى مهده
فقد تخلفت، ويا للأسف، ربات المحبة،
ومن أعوزته عطاياها فربما استطاع
أن يملك الكثير ويهب الكثير،
ولكنه لن يجد أحدًا يستريح على صدره[١] .

---

(١) وصف دقيق لشخصية أنطونيو التى تنزع إلى السيادة والتحكم، فتبتعد عن أعماق الحياة، وتجافيها أرواح الحب والفن والجمال . ومع أن فى هذه الصورة شيئًا غير قليل من الظلم، فإن أنطونيو لا ينكرها على نفسه . (راجع المشهد الثانى من الفصل الرابع) .

الأميـرة : ولكنه سيجد من يثق فيه، وليس هذا بالقليل .
أتريد أن تطلب كل شيء من رجل واحد ؟
إن أنطونيو ينجز ما يعدك به .
وما هو إلا أن يعلن صداقته لك،
حتى يتولى من شئونك ما أخطأت أو جهلت .
عليكما أن تتحدا . وسوف أغبط نفسى،
إذا استطعت أن أحقق هذا الهدف الجميل عما قريب .
ولكن حذار أن تعاند كما تعودت أن تفعل !
ها هى ليونورا تقيم عندنا منذ وقت طويل،
وما أرقها وألطفها، وما أسهل أن يحيا معها الإنسان،
غير أنك لم تفكر أبداً
فى أن تكسب ودها كما كانت تنتظر .
تاســـو : أنت أمرت فخضعت لأمرك،
ولولا هذا لفررت منها بدلاً من التقرب إليها .
بالرغم من مظهرها الرقيق، فلست أدرى
لماذا كان يصعب على أن أفتح لها صدرى،
وعندما كنت أشعر بأنها تقصد أن تتلطف إلى أصدقائها
فقد كان الشعور بالقصد يعكر على صفوى .
الأميـرة : لو سلكنا هذا الطريق يا تاسو
فلن نعثر أبداً على صديق !
إن هذا الدرب يضلنا

ويجعلنا نتوه فى الغابات الوحيدة والوديان الساكنة؛

وشيئًا فشيئًا يرضى الوجدان عن نفسه

ويحاول عبثًا أن يخلق فى داخله

ذلك العهد الذهبى[١] الذى لم يجده فى الخارج .

تاســـو : أى كلمة تنطق بها أميرتى !

أين إذن هرب هذا العهد الذهبى،

الذى تتلهف عليه القلوب بغير طائل ؟

عندما كان الناس ينتشرون على الأرض الحرة[٢]

كالقطعان السعيدة الراضية؛

عندما كانت الشجرة العريقة المزهرة

تمد ظلالها للراعى والراعية؛

وعندما كانت الأيكة الناضرة تلف غصونها الميادة

لتضم الحبيبين الملهوفين؛

والنهر الرقيق ينسكب فى هدوء وصفاء

على الرمل النقى ويعانق حورية الماء؛

والحية المذعورة تتوه فى العشب دون أن تؤذى أحداً،

---

(١) العهد الذهبى فكرة قديمة تشير إلى العصر السعيد الذى مضى ولن يعود . ولكن جوته يغير هنا من معناها القديم حين يشير بها إلى عصر يمكن أن يتحقق فى المستقبل، كما تدل على ذلك كلمات الأميرة فيما بعد .

(٢) يلاحظ النقاد فى الأبيات التالية بعض الصور والأفكار المستمدة من قصيدة تاسو «أمينتا» ومن «الراعى المخلص» للشاعر جواريتى المنافس لتاسو .

والحيوان الجسور يلوذ بالفرار
بعد أن نال العقاب من فتى شجاع؛
وكل طائر يخفق حراً فى الهواء
وكل حيوان يهيم فى الجبال والوديان
يكلم الإنسان فيقول : كل ما يرضيك فهو مباح !

الأميرة : انقضى العهد الذهبى يا صديقى،
وليس غير الأخيار من يحييه من جديد .
هل أصارحك بما يدور فى خاطرى؟
أحسب أن هذا العهد الذهبى الذى يتغنى به الشعراء،
هذا العهد الجميل لم يعرفه الناس قديماً
إلا كما نعرفه نحن اليوم؛
وحتى لو كان قد وجد فى يوم من الأيام،
ففى وسع كل منا أن يعثر عليه من جديد .
ما برحت القلوب المتحابة تتلاقى،
وما برحت تستمتع بهذا العالم الجميل؛
وإنما تتغير يا صديقى فى الشعار
كلمة واحدة : كل ما يليق فهو مباح !

تاســـو : ليت أن محكمة عامة تجتمع
من الطيبين والنبلاء،
كى تقرر ما يليق وما لا يليق !
بدلاً من أن يعتقد كل إنسان

أن ما يصح ويجوز هو ما يعود عليه بالمنفعة .
إننا نرى كيف أن الجبار والداهية
لا يضيره شيء ويستبيح لنفسه كل شيء .

الأمـيـرة : إن أردت أن تعلم ما يليق
فعليك أن تسأل النساء النبيلات
ذلك لأن أكثر ما يهمهن
ألا يحدث فى الحياة إلا ما يليق .
أن الذوق يحيط كالسور
بهذا الجنس الحساس الرقيق .
حيث تحكم الفضيلة يحكمن،
وحيث تغلب الوقاحة لا تعثر لهن على أثر .
فان سألت الجنسين وجدت
أن الرجل يسعى إلى الحرية
والمرأة تسعى إلى الفضيلة .

تاســـــو : هل ترين أننا غلاظ شرسون،
مجردون من كل عاطفة ؟

الأمـيـرة : لا ! ولكنكم تطمحون دائمًا إلى الأغراض البعيدة
وطموحكم لا يخلو أبدًا من العنف .
إنكم تخاطرون حين تعملون من أجل الخلود
بينما لا نطمع نحن من خيرات هذه الأرض
إلا فى شيء متواضع قريب، نتمنى ألا يزول .

نحن لا نضمن قلب أحد من الرجال
مهما بلغ صدقه فى يوم من الأيام .
الجمال الذى يبدو أنكم لا تجلون سواه، يفنى ويزول
ما يبقى منه لا يجذب أحداً، وما لا يجذب فلا أثر
فيه للحياة .
لو أن الرجال عرفوا كيف يقدرون قلب المرأة،
لو تبينوا أى كنز نقى من الحب والوفاء،
يمكن أن يضمه صدر امرأة
لو أن ذكرى الساعات الجميلة النادرة
بقيت حية فى نفوسكم،
لو أن نظرتكم النفاذة بطبعها
استطاعت كذلك أن تنفذ خلال القناع
الذى تلقيه الشيخوخة أو المرض علينا.
لو أن التملك، الذى كان ينبغى أن يكون مصدراً
للسلام،
لم يوقظ فيكم التعطش إلى المجهول البعيد :
إذن لأشرق علينا يوم جميل
ولاحتفلنا بعصرنا الذهبى .

تاســـو : كلماتك أيقظت فجأة
هموماً كادت تهجع فى قلبى .

الأميرة : ماذا تقصد يا تاسو ؟ تكلم معى بحرية .

تاسو : سمعت أكثر من مرة، وأسمع فى هذه الأيام
– ولو لم أسمع عن ذلك شيئًا، لوجب علىّ أن أتصوره –
أن بعض الأمراء النبلاء يسعون إلى طلب يدك !
هذا الذى كان ينبغى أن نتوقعه
أصبحنا الآن نخشاه حتى يكاد اليأس يصيبنا .
سوف تتركيننا، هذه مشيئة الطبيعة،
لكننى لا أدرى كيف سنحتمل هذا الفراق .

الأميرة : لا تحمل الآن همًا !
بل أكاد أقول : لا تحمل أبدًا أى هم !
إننى أحب الحياة هنا، وأحب أن أبقى فى هذا المكان .
لست أعرف إلى الآن أن هناك صلة يمكن أن تغرينى .
وإذا كنتم تريدون أن تستبقونى معكم
فأثبتوا لى ذلك بالتآلف بينكم،
وتعلموا أن تسعدوا أنفسكم لكى أسعد بكم .

تاسو : آه، علمينى أن أفعل ما أستطيع !
إن أيامى كلها ملك يديك .
حين يزدهر قلبى بثنائك وشكرك،
أحس بأصفى سعادة يمكن أن يحسها بشر .
حقيقة الألوهية السامية لم أعرفها إلا فيك .
كذلك تتميز آلهة هذه الأرض عن بقية البشر،

كما يتميز القدر الأعلى عن مشورة أحكم الناس
وإرادتهم .
إنهم يتركون أشياء كثيرة، هى فى حسباننا أمواج
عالية صاخبة،
تمر كالموجات الخفيفة تحت أقدامهم بغير أن يلحظوها،
إنهم لا يسمعون العاصفة التى تدوى حول رؤوسنا
وتدحرنا،
لا يكادون يحسون شكوانا ويتركوننا
نحن الأطفال الضعفاء المساكين،
نملأ الهواء بالتنهد والصياح .
أنت قد تحملتنى كثيراً، يا أيتها الصديقة الإلهية،
وكالشمس جففت نظرتك الندى من أجفانى .

الأميرة : تنصف النساء إذ تعاملك معاملة رقيقة :
فأغانيك تترنم بالمرأة بمختلف الألحان .
وسواء كن رقيقات أو جريئات،
فقد استطعت دائمًا أن تصورهن
في صورة محبوبة ونبيلة
وإذا كانت «أرميد» تبدو فى أول الأمر كريهة(١)
فسرعان ما نسلم السلاح أمام فتنتها وحبها .

---

(١) فى هذا الموضع والمواضع التالية إشارات عديدة إلى شخصيات وأحداث ترد فى ملحمة تاسو «أورشليم المحررة». وهنا إشارة إلى حب الساحرة أرميد لرينالدو . فهى تشعر أنه يمتهنها فتحاول أن تقتل نفسها، ولكن رينالدو يمنعها من ذلك ويتصالحان .

تاســـو : مهما تنوعت الأنغام فى قصائدى

فأنا أدين بها جميعًا لواحدة، لامرأة واحدة !

ليست صورة مثالية غامضة، تلك التى تطوف أمام

عينى،

وتقترب مرة لتبهر روحى بضيائها وتختفى مرة أخرى

لقد رأيتها بعينى، نموذج كل فضيلة ومثال كل

جمال؛

كل ما أبدعته على صورتها سوف يبقى :

حب تانكريد البطولى لكلورند(١)،

وفاء أرمينيا الهادئ الذى لا يلفت أحداً(٢)،

عظمة سوفرونيا وتعاسة أولنده(٣)،

ليست هذه أشباحاً ولدها الخيال،

فأنا أعلم أنها خالدة، لأنها كائنة .

وهل يحق لشىء أن يعبر القرون

ويواصل النمو والإشعاع فى سكون

كما يحق لسر حب نبيل

لم يثق إلا فى أغنية عذبة ؟

---

(١) يتبارز تانكريد وكلورنده بغير أن يعرف أحدهما الآخر، ولا يكتشف تانكريد حبيبته إلا بعد أن يجرحها جرحًا مميتًا .

(٢) إشارة إلى رغبة أرمينيا فى شفاء تانكريد بطريقة خارقة .

(٣) وإلى رغبة سوفرونيا فى التضحية بنفسها فى سبيل المسيحيين، مما يعذب أولنده

الأمـيـرة : هل أحدثك أيضاً عن فضيلة أخرى،

تجعل هذه الأغنية تتسلل إلى قلوبنا؟

إنها تسحرنا وتغوينا، فنسمع ونسمع،

ونظن أننا فهمناها

وما فهمناه منها لا نملك أن نعيبه،

وهكذا تغزو هذه الأغنية أفئدتنا .

تـاســـــو : أى سماء، يا أميرتى، تفتحين أبوابها لى !

إن لم يعمنى هذا البريق،

فسوف أرى، أنا الذى يئست من كل شىء،

سعادة خالدة تهبط إلىّ على أشعة ذهبية .

الأمـيـرة : لا تتماد يا تاسو ! هناك أشياء كثيرة

ينبغى علينا أن نتشبث بها بعنف،

غير أن هناك أشياء أخرى يمكن بالاعتدال

وبالحرمان أن تصبح ملك أيدينا،

هكذا يريد الحب، كما يقولون، وتريد الفضيلة

التى هى شقيقته . فتذكر ذلك جيداً !

المشهد الثاني

تاســـو : (وحده) : أمن حقك أن تفتح عينيك ؟

أتجرؤ أن تتلفت حولك ؟

أنت هنا وحدك !

هل سمعت هذه الأعمدة ما قالته ؟

وهؤلاء الشهود، هؤلاء الشهود الخرس،

على سعادتك الرائعة، هل تشك فيهم ؟

ها هي الشمس تشرق على يوم جديد في حياتي

لا يمكن أن تقاس به الأيام الخالية .

الآلهة تهبط إلى الأرض وترفع البشر الفاني إليها .

يا للأفق الجديد الذي يتفتح لعيني، يا للمملكة

الجديدة !

وأي مكافأة حلوة يجزى بها الشوق الحار !

كنت أحلم بأنني أقترب من السعادة السامية

فإذا بهذه السعادة تفوق كل الأحلام !

تفكر من ولد أعمى في النور وفي الألوان كما يشاء

حتى إذا تجلى له النهار الجديد، ولد له فكر جديد !

ها أنذا أسير على هذا الدرب، مفعمًا بمشاعر الأمل والرجاء،

نشوان أتمايل من الفرحة .

أنت تمنحينني الكثير، كما تمنحنا الأرض والسماء

فتفيض علينا بكفين غنيتين،

وكل ما تطلبينه الآن مني

حق تقتضيه عطاياك .

على أن أتعلم الحرمان وأظهر الاعتدال

لكى أستحق أن تثق بى .

ماذا فعلت إذن حتى تختارنى ؟

ماذا علىّ أن أفعل حتى أكون بها جديراً ؟

لقد وثقت بك، وبذلك جعلتك محلاً للثقة .

أجل يا أميرتى ! فلأهب روحى إلى الأبد

لأجل كلماتك ونظراتك !

أجل ! اطلبى ما تشائين، فأنا ملك يديك .

لترسلنى إلى البلاد البعيدة بحثًا عن المجد والمتاعب والأخطار،

ولتمد إلىّ يدها فى الغابة الساكنة بالقيثارة الذهبية،

ولأنشد من أجلها أناشيد الراحة الهنيئة .

أنا ملكها، فلتخلقنى من جديد لأكون لها .

قلبى احتفظ بكنوزه من أجلها .

لو أن ربا وهبني أن أتكلم بألف صوت
ما استطعت أن أعبر عن تقديسى لها .
لو أن لى فرشاة الرسام وشفة الشاعر،
أحلى ما ذاق عسل الصيف من شفاه !
لا، لن يهيم تاسو بعد الآن
وحيداً بين الأشجار وبين الناس
ضائعاً وضعيفاً ومحزوناً !
لم يعد وحيداً، إنه الآن معك .
آه لو أن أنبل الأعمال تمثل الآن أمامى
محاطاً بأبشع الأخطار !
إذن لأقدمت وخاطرت بهذه الحياة
التى تلقيتها من يديك -
ولدعوت أفضل الناس أن يكونوا من أصحابى
ولسرنا فى موكب نبيل، كى نحقق المستحيل
بإشارة صغيرة من يديها .
أيها الملهوف، لم لم تكتم شفتاك ما أحسست به
حتى تجد نفسك جديراً بالسجود عند قدميها؟
كانت تلك هى نيتك، وكانت هى رغبتك الحكيمة،
ومع ذلك فليكن ما يكون ! فأجمل بكثير
أن تتلقى هذه الهدية الصافية التى لم تستحقها
على أن تتوهم أنها كانت من حقك !

كن سعيداً ! فما أروع الأفق الذى يمتد أمامك؟
وما أعظمه ! وها هو الشباب المفعم بالآمال
يغريك بالمستقبل المضىء المجهول .
ترنم يا قلبى ! ويا سماء الحظ
باركى هذه النبتة التى تشرئب إليك !
إنها تتطلع إلى السماء آلاف الأفرع
تبزغ منها وتتفتح زهرات .
آه فلتعطنا الثمار، ولتعطنا الأفراح !
حتى تمتد يد حبيبة فتقطف الحلية الذهبية
من أغصانها الخصبة الناضرة !

المشهد الثالث

(تاسو - أنطونيو)

تاسو : مرحبًا بك، يا من أراه اليوم لأول مرة !
ومن لم أكن أتوقع أفضل منه . مرحبًا بك !
أنا الآن أعرفك وأعرف قدرك،
وبغير ما تردد أقدم لك قلبى ويدى،
وأطمع بدورى ألا تستصغر شأنى .

أنطونيو : أنت تحبونى بهداياك الجميلة
التى أعرف قدرها كما ينبغى،
ولكن دعنى أتردد قبل أن أمد إليها يدى،
فلست أدرى إن كنت أستطيع أن أرد عليك بمثلها .
لست أحب أن أبدو متعجلاً أو جاحدًا،
فاسمح لى أن أكون حكيمًا وحريصًا من أجلنا معًا

تاسو : من ذا الذى يلوم هذه الحكمة؟
إن كل خطوة فى الحياة تقنعنا بضرورتها .
ولكن الأجمل من ذلك أن تحدثنا النفس
بأن فى استطاعتنا أن نستغنى عن الحرص .

أنطونيو : ليرجع كل إنسان فى هذا إلى إحساسه
لأن عليه أن يتحمل بنفسه وزر خطئه .

تاســـو : ليكن الأمر كذلك . لقد قمت بواجبى،
واحترمت كلمة الأميرة التى تريد أن نكون أصدقاء
وسعيت بنفسى إليك .
لم يكن فى وسعى أن أتراجع يا أنطونيو؛
ولكننى لا أنوى أن أفرض نفسى عليك :
ليبق الأمر على ما هو عليه . فربما جاء اليوم
الذى نزداد فيه ألفة، فتحتفى بهديتى
التى ترفضها الآن فى برود وتكاد تحتقرها .

أنطونيو : كثيراً ما يبدو الرجل المعتدل بارداً
بالنسبة لمن يعتقدون أنهم أدفأ من غيرهم إحساساً،
لأن حرارة الحمى قد تمكنت منهم .

تاســـو : أنت تلوم ما ألومه وأتحاشاه .
وأنا، وإن كنت لا أزال شاباً،
أعلم تمام العلم أن الاتزان خير من الاندفاع .

أنطونيو : تلك هى الحكمة بعينها ! فلتبق دائماً على هذا الرأى .

تاســـو : من حقك أن تسدى إلىّ النصح وتحذرنى،
لأن التجربة تقف إلى جانبك كالصديقة الوفية .
ولكن صدقنى : أن هناك قلباً هادئاً،

ينصت إلى الدرس الذى يلقيه كل يوم وكل ساعة

عليه،

ويجتهد فى الخفاء أن يصل إلى ذلك الخير،

الذى تعتقد بقسوتك أنك تستطيع أن تعلمنا فيه

درساً جديداً .

أنطونيو : من الممتع حقًا أن يشغل الإنسان بنفسه

إذا كان فى ذلك بعض الفائدة .

إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف حقيقة نفسه بالتأمل

فى نفسه؛ ذلك لأنه يحتكم إلى مقياسه وحده،

فيستصغر نفسه أو يضخمها للأسف فى أغلب الأحيان .

إن الإنسان لا يعرف نفسه إلا من خلال الإنسان،

والحياة وحدها هى التى تعرف كل امرئ بحقيقته .

تاســـو : إننى أسمعك فى احترام وأرحب بكل ما تقول .

أنطونيو : ومع ذلك فربما فهمت من هذه الكلمات

شيئًا، يختلف عما أريده كل الاختلاف .

تاســو : إذا سرنا على هذا الطريق فلن نقترب من بعضنا .

ليس من الحكمة ولا من الخير أن نتعمد إساءة الظن

بإنسان أيًا كان .

إن دعوة الأميرة لم يكن لها داع . فقد عرفت من

زمن بعيد،

أى إنسان أنت . أعلم أنك تريد الخير وتفعله .

إن قدرك لا يهمك . ولهذا تفكر فى غيرك وتقف إلى
جانبه،
ويظل قلبك ثابتًا على أمواج الحياة المتقلبة .
هكذا أراك . وماذا يكون شأنى إن لم أسع إليك ؟
ألم أتلهف على نصيب من الكنز الذى تضن به ؟
أعلم أنك لن تندم إذا فتحت لى صدرك،
وأعلم أنك ستصادقنى إذا عرفتنى على حقيقتى :
وقد كنت من زمن طويل فى حاجة إلى مثل هذا
الصديق .
إننى لا أخجل من قلة تجربتى ولا من شبابى .
لم تزل سحابة المستقبل الذهبية ترف حول جبهتى .
آه فلتأخذنى، يا أيها النبيل، على صدرك
ولتعلمنى، وأنا الطائش الجاهل،
سر الاعتدال فى الحياة .

أنطونيـو : إنك تطلب فى لحظة واحدة
ما لا يكفله الزمن إلا بالحكمة والروية .

تاســـو : إن الحب يكفل فى لحظة واحدة
ما لا يدركه الجهد فى زمن طويل .
لست أرجوك وإنما أطالبك .
إننى أدعوك باسم الفضيلة
التى تجاهد فى الربط بين القلوب النبيلة .

وهل أسمى لك اسما ؟

إن الأميرة هى التى تأمل هذا، هى التى تريده .

اليونورا هى التى تريد أن تقربنى منك، وتقربك منى .

فلا تجعلنا نرفض رغبتها !

دعنا نتقدم إلى الربة متحدين،

لنهبها صلاتنا ونمنحها روحنا

ولنحقق معًا ما يليق بها .

مرة أخرى . هذه يدى ! فصافحها !

لا تتراجع أيها النبيل ولا تتأبَّ

ولتتح لى أجمل متعة يتذوقها الفضلاء،

الذين يهبون أنفسهم للأفضل فى ثقة وبغير تحفظ .

أنطونيو : أراك تبحر بملء شراعك !

فقد تعودت فيما يبدو على أن تنتصر فى كل معركة،

وأن تجد الطرق ممهدة أمامك والأبواب مفتوحة .

إننى أرضى لك بالفضل والسعادة عن طيب خاطر .

غير أننى أرى بوضوح أن كلينا ما زال بعيدًا كل

البعد عن صاحبه .

تاســـو : ربما فرقت بيننا السنون والتجارب

أما الشجاعة والإرادة الطيبة

فلست أقل فيهما عن أحد .

أنطونيـو : الإرادة لا تكفى للإتيان بجلائل الأعمال؛
والشجاعة تصور الطرق أقصر من حقيقتها .
من يصل إلى الهدف يوضع التاج على رأسه،
وكثيراً ما يحرم منه من هو أولى به .
إن التيجان اليسيرة موجودة، ومتعددة الأنواع:
وكثيراً ما ينالها من يتنزه بغير مجهود .

تاســـو : إن ما تمنحه يد الرب لهذا أو تمنعه باختيارها عن ذاك،
ليس شيئًا يمكن أن يدركه كل من أحب أو شاء .

أنطونيـو : أرجع هذا إلى الحظ دون غيره من الأرباب،
بذلك أوافقك لأنه أعمى عن الاختيار .

تاســـو : العدالة أيضًا معصوبة العينين،
تغمض البصر عن كل بريق خداع .

أنطونيـو : هل يمجد الحظ إلا المحظوظ ؟!
إنه يجعل له ألف عين ترى فضله،
ويمتدح اختياره الصائب وعنايته الشديدة
وسواء سماه «مينرفا» أو ما شاء من أسماء
فهو يعد المنحة مكافأة،
والحلية التى خلعتها عليه المصادفة
زينة نالها عن جدارة واستحقاق .

تاســـو : لست فى حاجة إلى أن تكون أوضح من هذا .
كفى ! إننى أنظر فى أعماق قلبك وأعرفك مدى الحياة .

آه لو أن أميرتى أيضاً عرفتك على حقيقتك !

لا تبذر فى سهام عينيك ولسانك !

لقد حاولت عبثاً أن توجهها إلى هذا التاج،

هذا التاج الذى لن يذبل على جبينى .

كن كبير القلب ولا تحسدنى عليه

فقد تستطيع عندئذ أن تنازعنى إياه .

إنه عندى أقدس وأسمى ما أملك .

أرنى مع ذلك الرجل الذى نال ما أطمح إليه،

أرنى البطل الذى لم أسمع عنه إلا من حكايات

التاريخ؛

دلنى على الشاعر الذى يستطيع أن يقرن نفسه

بهوميروس أو فرجيل،

لا بل إننى لأطلب منك أن تدلنى

على رجل استحق هذه الهدية ثلاث مرات،

وأخجله هذا التاج أكثر مما أخجلنى ثلاث مرات :

إن فعلت هذا، فسترانى أركع على قدمى

أمام الربة التى أسبغت على هذه النعمة؛

ولن أنهض عندئذ قبل أن تمد يديها

وتخلع هذه الزينة من على جبينى لتضعها على جبينه .

أنطونيـو : إلى أن يتم ذلك، فسوف تظل بالطبع جديراً بها .

تاســـو : لأوضع موضع الاختبار، فلست أعترض على هذا،
أما الاحتقار فلم أفعل ما يجعلنى أستحقه .
إن التاج الذى كرمنى به أميرى،
وضفرته أميرتى بيديها
لا يستطيع أحد أن ينكره علىّ أو يسخر به .

أنطونيـو : هذه اللهجة المتعالية، وهذا الغضب الملتهب،
لا يصح أن توجههما إلىّ، ولا يليقان بك فى هذا
المكان .

تاســـو : إن ما تسمح به هنا لنفسك، يليق أيضاً بى
هل نفيت الحقيقة من هذا المكان ؟
هل سجنت الروح الحرة فى هذا القصر ؟
وهل يتحتم على النفس النبيلة أن تتحمل الاضطهاد ؟
أعتقد أن النبل وسمو الروح هنا فى مكانهما الصحيح .
أحرام عليها أن تسعد بالقرب من عظماء هذه الأرض ؟
بل إن فى استطاعتها ومن واجبها أن تفعل .
إننا لا نقترب من الأمير
إلا بالنبالة التى ورثناها عن الآباء؛
فلماذا لا نقترب منه بالوجدان العظيم
الذى لم تشأ الطبيعة أن تعطيه لكل إنسان
كما لم تشأ أن تمنح الجميع سلسلة من الأسلاف
العظام؟

لا يشعر بالرعب هنا إلا الصغار،
وإلا الحسد الذى يكشف عن عاره؛
كذلك لا يصح لنسيج عنكبوت قذر
أن يعلق بهذه الجدران المرمرية .

أنطونيـو : أنت تعطيني بنفسك الحق فى امتهانك !
أيريد الصبى المتهور أن يغتصب ثقة الرجل وصداقته؟
أتظن نفسك خيِّرًا وأنت عديم الأخلاق ؟

تاســـو : خير لى أن أوصف بما تسميه عدم الأخلاق
من أن أوصف بما يمكن أن أسميه بالانحطاط .

أنطونيـو : ما زلت صغيراً إلى الحد الذى تستطيع معه التربية
الصحيحة، أن تعلمك السير على طريق أفضل .

تاســـو : لست صغيراً إلى حد أن أركع أمام الأصنام،
بل كبير إلى الحد الذى يجلعنى أواجه التحدى
بالتحدى .

أنطونيـو : حيثما تكون الكلمة للشفاه والأوتار،
فأنت البطل والمنتصر بلا جدال .

تاســـو : ربما كان من الجرأة أن أفتخر بيمينى
فهى لم تفعل شيئًا، ومع ذلك فإننى أعتمد عليها .

أنطونيـو : إنما تعتمد على التسامح الذى دلَّلك كثيراً
فى حين تابع حظك طريقه الوقح .

تاســـو : الآن أشعر أننى تجاوزت الطفولة .
كنت آخر من يمكن أن أجرب معه لعبة السلاح :
لكنك تزيد النار اشتعالاً؛ النخاع يغلى،
والشهوة الأثيمة إلى الانتقام تفور فى صدرى .
إن كانت لديك الرجولة التى تتباهى بها فهيا إلى
النزال .

أنطونيـو : أنت تجهل من أنت كما تجهل مكانك .

تاســـو : ما من قداسة تدعونا إلى احتمال الهوان .
أنت الذى تكفر وتدنس هذا المكان،
لا أنا الذى جئت أقدم لك أجمل قربان
من الثقة والمحبة والتكريم
إن روحك هى التى تلوث هذا الفردوس،
وكلماتك تلوث هذه القاعة النقية
لا الإحساس الذى يثور فى قلبى ويفور .
ويأبى أن يلطخه أدنى عار .

أنطونيـو : أى روح عظيم فى قلب ضيق !

تاســـو : لا يزال فيه متسع للتنفيس عن الصدر .

أنطونيـو : العامة تنفس أيضًا عن غضبها بالكلام .

تاســـو : إن كنت نبيلاً مثلى فاثبت ذلك .

أنطونيـو : إننى كذلك بالفعل، ولكنى أعرف مكانى .

تاســـو : تعال معى إذن إلى حيث يحكم السلاح .

أنطونيـو : كما لم يكن لك أن تطلبنى للنزال، فكذلك لن أتبعك .

تاســـو : بمثل هذه العقبة يرحب الجبن .

أنطونيـو : الجبان لا يتوعد إلا حين يشعر بالأمان .

تاســـو : يمكننى أن أزهد فى هذه الحماية عن طيب خاطر .

أنطونيـو : اغفر إن شئت ما أذنبته فى حق نفسك،

ولكن لا تغفر ما أذنبت به فى حق هذا المكان .

تاســـو : فليغفر لى المكان أننى احتملت هذا .

(يجرد سيفه)

جرد سلاحك أو اتبعنى .

إلا إذا كنت تريد،

أن أحتقرك إلى الأبد كما أكرهك !

المشهد الرابع

(ألفونس - السابقون)

ألفونس : ماذا أرى؟ أى نزاع لم أكن أتوقعه؟

أنطونيو : أنت ترانى، يا أمير، أقف فى اتزان

أمام إنسان تَمَلَّكَهُ الغضب .

تاسو : أتوسل إليك كما أتوسل لإله

أن تمسك زمامى بنظرة واحدة منك .

ألفونس : قل لى يا أنطونيو، وأنت يا تاسو،

كيف نفذ الشقاق إلى بيتى ؟

كيف استولى عليكما، كيف استطاع

أن ينتزع حكيمين مثلكما

عن سبيل الشرائع والأخلاق؟!

إننى فى عجب من الأمر .

تاسو : أعتقد أنك لا تعرفنا حق المعرفة .

هذا الرجل، المشهور بالحكمة والخلق الطيب،

عاملنى معاملة فظة لئيمة

كما يفعل مخلوق لا حظ له من الأدب أو النبل .

سعيت إليه راجيًا فصدني،

لم أيأس، فظللت أتقرب منه

لكنه احتدّ في مرارة فلم يسترح

حتى أحال أصفى قطرة في دمي إلى علقم .

معذرة ! لقد وجدتني أجن من الغضب .

ولكن إذا كنت قد أخطأت، فهذا هو المسئول .

لقد أشعل نار الغضب التي استولت عليّ وجرحتني وجرحته .

أنطونيو : إن حماس الشعراء قد ذهب به بعيدًا !

لقد بدأت، يا أمير، بتوجيه السؤال إليّ،

فأْذن لي الآن، بعد هذا الحديث المندفع، بالكلام .

تاسو : أجل، إرو ما حدث، إروه كلمة كلمة !

وحاول إن استطعت أن تصف

كل مقطع وكل إشارة أمام هذا القاضي !

أهن نفسك مرة أخرى، واشهد على نفسك !

أما أنا فلن أنكر نَفَسًا ولا نبضة قلب .

أنطونيو : إن كان لديك ما تقوله فتكلم،

وإلا فاسكت ولا تقاطعني .

إن كنت أنا ، يا أميري، الذي بدأت النزاع

أو كان هذا الرأس المندفع هو الذي بدأ به،

ومن منا الذى يتحمل الخطأ؟

فتلك أسئلة طويلة لا ضرورة الآن للإجابة عنها .

تاســــو : كيف هذا ؟! إن السؤال الأول فى رأيى

هو من المخطئ فينا ومن المصيب ؟

أنطونيـو : ليس هذا صحيحًا، كما قد يخيل لعقل أفلت منه

الزمام .

ألفـونس : أنطونيو !

أنطونيـو : مولاى ! إننى أخضع لإشارتك، ولكن مره بأن يلزم

الصمت .

فإذا فرغت من كلامى، أمكنه أن يستطرد الحديث،

وسوف تقرر الأمر بنفسك .

هذا هو ما أريد أن أقول :

إننى لا أستطيع أن أجادله

كما لا أستطيع أن أتهمه أو أدافع عن نفسى

ولا أن أحاول الآن أن أسترضيه .

ذلك لأنه الآن لم يعد إنسانًا حرًا .

إن قانونًا ثقيل العبء يرزح فوق رأسه .

ولن يخفف منه سوى عفوك ورحمتك .

لقد هددنى فى هذا المكان، وطلب منى النزال؛

ولم يكد يخفى أمامك السيف العارى .

ولو لم تتدخل بيننا يا مولاى

لرأيتنى أقف الآن خجلاً أمامك
وقد نسيت واجبى وشاركته فى إثمه .

ألفونس : لـ (تاسو) : لم تحسن التصرف .

تاسو : إن قلبى يبرئنى يا مولاى
ولا شك أيضًا أن قلبك يبرئنى .
لقد هددت حقًا، وطلبت النزال، وجردت سيفى .
ولكنك لن تتصور كيف راح لسانه اللئيم
ينتقى الكلمات الجارحة،
ولا كيف راح نابه السريع الحاد
يسكب السم الرهيف فى دمى،
ولا كيف مضى يشعل نار الحمى ويزيدها اشتعالاً،
لقد ظل يثيرنى فى هدوء وبرود ويخرجنى عن طورى .
آه ! إنك لا تعرفه ! لا تعرفه ولن تعرفه أبدًا !
حملت إليه من القلب أجمل صداقة
فألقى عطاياى عند قدميه؛
ولو لم تشتعل نفسى غضباً،
لما كانت أبدًا جديرة بنعمتك،
ولا استحققتُ أن تكون فى خدمتك .
إن كنت نسيت القانون
وحرمة هذا المكان فاغفر لى .
لا يصح أن أحتقر فى أى مكان،

ولا يصح في أي مكان أن أحتمل الهوان .
وإذا حدث لهذا القلب، أينما كان،
أن يقصر في حقك وفي حق نفسه
فعاقبني واطردني،
ولا تجعل عينك تقع مرة أخرى على وجهي .

أنطونيو : ما أخفف ما يحمل الشاب الأعباء الثقال!
وما أيسر أن ينفض الأخطاء عن ثوبه كما ينفض الغبار!
لو كنا نعرف سحر الشعر الذي يهوى العبث مع
المستحيل،
أقل مما نعرفه، لكان في هذا ما يبعث على العجب .
ولا أكاد أصدق يا أميري
أنك ستستهين بهذا الفعل
أو يستهين به أحد من خدمك .
إن الجلالة تظل بحمايتها
كل من يدنو منها ومن مسكنها الحرام،
كما يدنو من إله .
وكل عاطفة تكبح جماحها
حين تلامس عتبتها،
كأنها تقترب من مذبح مقدس .
هناك لا يلمع سيف، ولا يتوعد صوت
ولا تصرخ الإهانة نفسها مطالبة بالثأر .

أما وراء ذلك، ففى الميدان متسع

للغضب والحقد والصراع :

هناك لا يهدد الجبان، ولا يهرب الشجاع .

هذه الأسوار قد أقامها آباؤك

على قاعدة من الطمأنينة والأمان،

وشادوا لعزتهم قدسًا حصينًا

وحافظوا فى جد وذكاء

بالجزاء الرادع على هذا السلام،

وأخذوا المذنب بالنفى والطرد والموت .

لم يكن هناك اعتبار للأشخاص

ولم توقف الرأفة ذراع العدالة

وأحس المستهتر نفسه بالفزع .

وها نحن بعد السلام الجميل الممدود

نرى الغضب المجنون يعود إلى حمى الأخلاق

احسم يا مولاى وعاقبْ !

ألا يستحق من يلتزم بحدود الواجب

أن يتمتع بحماية القانون ونصرة الأمير ؟

ألفونس : إن ضميرى المحايد ليستمع

إلى أكثر مما تقولان أو يمكنكما أن تقولاه .

ليتكما أحسنتما أداء الواجب

ولم تلجئانى إلى النطق بهذا الحكم .

ذلك لأن العدل والظلم هنا متقاربان .

إذا كان أنطونيو قد أساء إليك

فإن من واجبه بطريقة أو بأخرى

أن يقدم لك التعويض الذى تشاء .

وسوف يسرنى أن تجعلانى حكمًا بينكما .

إن خطأك يا تاسو يجعل منك سجينًا .

إننى أعفو عنك، وأخفف القانون من أجلك .

اتركنا يا تاسو، والزم حجرتك

وأجعل من نفسك حارسًا على نفسك .

تاســـو : أهذا هو الحكم الذى تقضى به يا أمير ؟

أنطونيـو : ألا تتبين فيه رأفة الأب الحنون ؟

تاســـو : لـ (أنطونيو) : لم يعد لى من الآن معك حديث .

لـ (ألفونس) : إن كلمتك الصارمة يا أمير

تسلمنى، وأنا الحر، للسجن .

لتكن مشيئتك . ما دمت تعتقد أنها الحق .

ها أنا ذا أحترم أمرك المقدس .

وأسكت الصوت الذى يصرخ فى أعماق قلبى .

إن الأمر جديد علىّ، جديد إلى الحد الذى لا أملك معه

أن أتعرف عليك أو على نفسى أو على هذا المكان

الجميل.

أما هذا الرجل فإننى الآن أعرفه .

سأطيع أمرك، وإن بقى الكثير
مما أستطيع وما ينبغى على أن أقول .
إن الصمت يخرس شفتى . أكانت جريمة ؟
إنها على الأقل تبدو كذلك، فإننى أُعدُّ الآن مجرمًا .
وسواء ما يقوله لى قلبى، فأنا الآن سجين .

ألفونس : أنت تهول الأمر يا تاسو أكثر مما يستحق .

تاسو : إن الأمر يبدو لى لغزًا،
أو لعله ليس لغزًا، فأنا لم أعد طفلاً .
وأكاد أقول لا بد أن أفهمه .
إننى ألمح نورًا على حين فجأة
وفى لحظة أراه قد خمد .
لا أسمع غير الحكم علىّ، فأنحنى له .
أقول لنفسى : لقد تكلمت كثيراً بغير طائل .
فتعود من الآن أن تخضع .
أيها العاجز ! لقد نسيت مكانك
وظننت أن قاعة الآلهة على الأرض،
وها هى السقطة المباغتة تفاجئوك .
ارض بالخضوع، فخليق بالرجل
أن يفعل ما يكرهه عن طيب خاطر .
خذ أولاً هذا السيف الذى أعطيته لى
عندما تبعت الكاردينال إلى فرنسا،

لقد حملته فلم أكسب به مجداً،

ولم أجر يوماً على نفسى العار .

ولا فعلت ذلك اليوم .

هذه الهدية التى علقت عليها الآمال

أتنازل عنها بقلب متأثر كسير .

ألفـونس : أنت لا تدرى بشعورى نحوك .

تاســــو : كتب على أن أطيع لا أن أفكر!

كما أراد القدر، للأسف منى،

أن أزهد فى هدية أروع .

إن التاج لا يناسب السجين،

ولذلك أنزع بنفسى الزينة،

التى حسبت أنها خلعت على جبهتى إلى الأبد .

لقد نعمت بالسعادة الفائقة فى أول الصبا،

غير أنها سرعان ما سلبت منى

وكأننى تبطرت عليها .

إنك تنزع عن نفسك ما لا يستطيع أحد أن ينزعه عنك،

وما لا يهبه إله للمرة الثانية .

إننا نحن، البشر، نمتحن امتحاناً عجيباً،

وما كان لنا أن نصبر أو نحتمل،

لو لم ترزقنا الطبيعة بالاستخفاف البرىء .

تعلمنا الشدة كيف نبدد

فى النعم التى لا تقدر
ونفتح أكفنا بإرادتنا
لتفلت منها النعمة إلى غير رجعة .
مع هذه القبلة أذرف دمعة
تهبك للزوال ! إنها من حقنا،
هذه العلامة الرقيقة على ضعفنا .
من الذى لا يبكى حين يرى
أن الخلود نفسه لا يأمن الدمار ؟
الحق الآن بهذا السيف، الذى لم يكسب من أجلك
شيئًا !
اقترب منه وارقد على قبر سعادتى وأملى،
كما ترقد على تابوت الشجعان !
ها أنا ذا أضعهما طائعًا عند قدميك :
فمن ذا الذى يملك سلاحًا أمام غضبك ؟
ومن يتزين، يا مولاى، إن أنت أهملته ؟
إننى أمضى سجينًا، وأنتظر حكمك .
(يشير الأمير فيرفع أحد الخدم السيف والإكليل
ويحملهما بعيدًا) .

المشهد الخامس

(ألفونس - أنطونيو)

أنطونيو : إلى أين يهيم الغلام ؟ بأى الألوان
يرسم قيمته وقدره ؟
إن الشباب، بجهله وقصوره،
يتوهم نفسه شيئًا فريدًا مختارًا
ويستبيح لنفسه كل شيء عن كل إنسان .
فليشعر بأنه معاقب، فالعقاب يحسن إلى الفتى
الذى سيشكرنا عليه حين يصبح رجلاً .

ألفونس : لقد لقى عقابه، وأخشى أن يكون قد زاد عليه العقاب .

أنطونيو : إن شئت أن ترأف به
فأعد إليه حريته يا أمير،
وليحسم السيف ما بيننا من خلاف .

ألفونس : إن اتفقت الآراء على هذا فليكن لك ما تريد .
ومع ذلك قل لى، كيف أثرت غضبه ؟

أنطونيو : لا أستطيع تفسير ما حدث .
ربما أسأت إليه كإنسان،
غير أننى ما أهنت فيه الرجل النبيل .
إنه فى قمة غضبه لم تفلت من شفتيه كلمة نابية .

ألفونس : هكذا بدا لى ما وقع بينكما من خلاف .
وحديثك يؤيد ما خطر لأول مرة على بالى .
عندما يتنازع رجلان فالعقل يميل
إلى إلقاء الذنب على أكثرهما حكمة .
لم يكن ينبغى عليك أن تثير غضبه،
بل كان الأولى بك أن ترشده وتهديه .
ما زال فى الوقت متسع،
وليس فى الأمر ما يضطركما إلى الخلاف .
وما دام السلام يرفرف على بلادى
فإننى أحب أن أتمتع به فى بيتى .
أعد الطمأنينة إليه - إن هذا أمر يسير عليك .
لتبدأ ليونورا سانفيتاله ولتحاول
أن تهدئه بكلماتها الرقيقة .
ولتذهب إليه بعد ذلك، كى تعيد
إليه حريته الكاملة على لسانى،
ولتكسب ثقته بالكلام الصادق النبيل .
أنجز هذا الأمر بأسرع ما تستطيع

وليكن حديثك معه حديث الوالد والصديق .

أريد أن أطمئن إلى عودة السلام قبل الرحيل،

وما من شيء يستحيل عليك، ما دمت تريد .

لنمد إقامتنا ساعة أخرى

وبعد ذلك فلنترك للنساء

أن يتممن في حنان ما بدأت؛

فإذا رجعنا لم نجد

أثراً لهذا الحادث السريع .

يبدو يا أنطونيو أنك لا تريد

أن تخلي يديك من العمل . فلم تكد تفرغ من مهمة،

حتى رجعت تبحث عن أخرى،

أرجو أن تكلل فيها بالنجاح .

أنطونيـو : لقد أخجلتني وجعلتني كلماتك

أرى خطئي كما لو كنت أنظر في مرآة صافية !

ما أسهل أن يطيع المرء سيداً نبيلاً

يقنعنا، حين يلقي علينا أوامره!

الفصل الثالث

المشهد الأول

الأميرة : (وحدها) أين ليونورا ؟ كل لحظة تمر على
تحرك الألم فى صميم الفؤاد .
لا أكاد أدرى ما حدث،
لا أكاد أدرى من منهما المخطئ .
آه ليتها تجيء ! فلست أحب
أن أتحدث مع شقيقى ألفونس،
قبل أن يعود إلى نفسى الهدوء،
وقبل أن أعرف ما حدث،
وما يمكن أن تصير إليه الأمور .

المشهد الثانى

(الأميرة - ليونورا)

الأميـرة : ماذا تحملين معك يا ليونورا ؟ أخبرينى،
كيف حال صديقينا ؟ ماذا جرى ؟

ليونورا : لم يصل إلى علمى أكثر مما نعلم .
وقع صدام بينهما، فجرد تاسو سيفه
وفرق شقيقك بينهما. بيد أنه يبدو
أن تاسو هو الذى بدأ النزاع :
إن أنطونيو يذهب ويجىء حرًا
ويتكلم مع أميره؛ أما تاسو
فهو منفى وحيد فى حجرته .

الأميـرة : لابد أن أنطونيو استفزه،
وأهان الروح الشاعرة فى برود وجفاء .

ليونورا : أنا أيضًا أعتقد هذا . فقد رأيت
سحابة تطوف بجبهته حين أقبل عليه .

الأميـرة : آه ! لماذا نغفل فى مثل هذا الموقف
عن طاعة الإشارة النقية الهادئة التى تأتى من القلب ؟
بصوت هامس يتحدث إله فى صدورنا،
بصوت خافت، ولكنه مسموع، يدلنا
علىّ ما نغتنمه وما نتحاشاه .
بدا لى أنطونيو صباح اليوم
أكثر غلظةً مما عهدتُ وأشد انزواء.
أحسست بأن روحى تنذرنى
حين رأيت تاسو يقترب منه .
قلت يكفى أن أرى مظهريهما؛
الوجه والتعبير والنظرة والخطوة !
إنهما مختلفان فى كل شىء،
ولن يستطيعا أبدًا أن يتبادلا الحب .
ومع ذلك فإن الأمل، هذا المنافق،
راح يقنعنى بقوله «إنهما عاقلان
نبيلان وبصيران وصديقان لك»
وأى رباط أوثق من رباط
يجمع بين القلوب الكبيرة ؟!
ما كان أجمل وأصدق ما وهب نفسه لى !
آه ليتنى تكلمت علىّ الفور مع أنطونيو !
ترددت، وكان الوقت ضيقًا؛

تهيبت أن أبدأ كلامى معه
فأوصيه بالشاب وألح عليه،
اعتمدت علىّ التقاليد والآداب
والعرف المألوف بين الناس
الذى يرعاه حتى الأعداء؛
ولم أخش علىّ الرجل المجرب
من اندفاع الشباب المتهور .
ولكن حدث ما خشيت . ظننت الشر بعيداً،
وها هو الآن قريب . ماذا أفعل ؟ أشيرى علىَّ !

ليونورا : أنت تعرفين أنه من الصعب علىَّ أن أشير
بعد ما قلته بنفسك . فليس الأمر هنا أمر سوء تفاهم
بين أناس متشابهين فى التفكير،
فذلك أمر تصلحه الكلمات، أو يصلحه السلاح
إن دعا الأمر فى يسر وبغير عناء .
شعرت من زمن بعيد أنهما رجلان
يعادى أحدهما الآخر، لأن الطبيعة
عجزت أن تكوِّن منهما رجلاً واحداً،
ولو فطنا إلى مصلحتهما لأصبحا صديقين،
ولوقفا كرجل واحد وتقدما فى الحياة،
قويين سعيدين مرحين،
هكذا كنت أرجو، غير أننى أرى الآن عبث الرجاء .

إن الخلاف الذى وقع اليوم، أيا كان أمره،

يمكن أن ننهيه؛ غير أن هذا

لا يضمن لنا المستقبل ولايؤمننا علىّ الغد .

لقد فكرت أنه من الأفضل أن يسافر تاسو

ويغادر هذا المكان إلى حين،

إنه يستطيع أن يتجه إلى روما أو إلى فلورنسا؛

هناك ألتقى به بعد أسابيع قليلة،

وقد أؤثر على وجدانه تأثير الصديق .

أما أنت فتستطعين أن تحاولى من جديد،

أن تقربى أنطونيو منك ومن أصدقائك

وهو الذى كاد يصبح غريباً عنا .

كل هذا الذى يبدو الآن مستحيلاً

قد يحققه الزمن الطيب الذى يحقق الكثير .

الأمـيـرة : تريدين، يا صديقتى، أن تستأثرى بالمتعة،

وتتركيننى للحرمان، فهل هذا من الإنصاف ؟

ليـونـورا : لن تحرمى فى هذه الحالة إلا من شيء،

لن يمكنك أن تستمتعى به .

الأمـيـرة : أأنفى صديقًا لى بكل هذا الهدوء ؟

ليـونـورا : بل ستحتفظين به، وإن نفيته فى الظاهر .

الأمـيـرة : لن يوافق شقيقى على تركه .

ليونورا : إذا رأى الأمر كما نراه فسوف يقبل .

الأميرة : من الصعب أن يجنى الإنسان على نفسه بجنايته على صديق .

ليونورا : ومع ذلك فالصديق هو الذى تنقذينه فيك .

الأميرة : لا لن أوافق عليّ أن يحدث هذا .

ليونورا : انتظرى إذن أن يحدث ما هو أسوأ .

الأميرة : أنت تعذبيننى ولا تدرين كيف تحسنين إليَّ .

ليونورا : عما قريب نتبين منَ المخطئ فينا .

الأميرة : إذا لم يكن مفر من ذلك فلا تلحى عليّ بالسؤال .

ليونورا : من يصمم يهزم الألم .

الأميرة : لا أستطيع أن أصمم، ولكن ليكن لك ما تريدين

ما دامت غيبته عنا لن تطول –

ولنرع شئونه يا ليونورا،

حتى لا يقاسى فى المستقبل من الحرمان،

وحتى يرضى الأمير أن يرسل إليه فى غربته

راتبه الذى يكفل له الحياة .

تكلمى مع أنطونيو، فهو يملك أن يؤثر عليّ شقيقى،

ولن يحفظ هذا النزاع قلبه

عليّ صديقنا أو علينا .

ليونورا : كلمة واحدة منك يا أميرة أقوى فى التأثير .

الأمـيـرة : تعلمين يا صديقتى أننى لا أستطيع
أن ألتمس شيئًا لنفسى أو لأصدقائى،
كما تفعل شقيقتي التي تعيش فى أوربينو .
إننى أحب أن أقضى حياتى فى هدوء
وأتلقى من شقيقى امتنانَ
كل ما يستطيع أو يريد أن يعطيه لى .
كثيرًا ما لمت نفسى علىّ هذا،
لكننى الآن قد تغلبت علىّ هذه النزعة .
وكثيرًا ما عاتبتنى صديقة علىّ هذا وقالت لى :
أنت تحبين بطبعك الإيثار، وهذا شىء جميل،
غير أنك تبالغين فى ذلك، فلا تحسين
بما يحتاج إليه أصدقاؤك .
نعم إننى أدع الأمور تجرى فى سبيلها
ولا بد لى أن أتحمل هذا العتاب
ولكن مما يزيدنى سعادة، أن أتمكن الآن
من أن أمد يد العون لصديقى،
لقد ورثت هذا عن أمى،
وأود الآن أن أرعاه .
ليـونـورا : وأنا يا أميرة أرى الفرصة سانحة
لكى أبرهن له على صداقتى .

لقد كان دائمًا يسىء تدبير شئونه،

وسأعرف كيف أساعده كلما احتاج .

الأمـيـرة : خذيه إذن، وإن كتب علىّ الحرمان .

فلتكونى أنت أوْلى به من كل إنسان

أجل ! إننى أرى أن هذا هو الأفضل .

أحتم علىّ أن أثنى علىّ هذا العذاب

وألتمس فيه من جديد الخير والشفاء ؟

هكذا كان حظى منذ الطفولة،

وأنا الآن قد تعودت عليه .

نحن لا نفقد السعادة الرائعة كل الفقدان

حين نعلم أنها لم تكن من نصيبنا .

ليـونـورا : أتمنى أن أراك فى يوم من الأيام،

تنعمين بالسعادة التى تستحقينها .

الأمـيـرة : اليونورا ! سعادة ؟ ولكن أين هو السعيد ؟

ربما استطعت أن أقول عن شقيقى إنه سعيد،

فقلبه الكبير يتحمل صروف القدر وهو صبور؛

غير أنه لم ينل أبدًا ما هو به جدير .

هل شقيقتى التى تعيش فى أوربينو سعيدة[١] ؟

---

(١) إشارة إلى زواج شقيقتها لوكرتسيا من ولى عهد أوربينو الذى كان يصغرها بكثير . فقد فشل هذا الزواج وعادت لوكرتسيا بعد قليل إلى بيت أبويها .

هذه المرأة الجميلة، هذا القلب النبيل الكبير !

إنها لم تهب زوجها الذى يصغرها أطفالاً

وهو يجلها ولا يشكو منها،

ومع ذلك فالفرح لا يسكن بيتها .

ماذا استفادت أمنا من حكمتها(٢) ؟

ماذا جنت من علمها الزاخر ومن فكرها الرفيع ؟

هل استطاع أن يحميها من الخطأ الغريب ؟

لقد انتزعونا منها، وهى الآن فى التراب،

ولم تترك لنا نحن الصغار العزاء،

الذى يشعرنا بأنها ماتت على وفاق مع اللّه .

ليونورا : آه لا تتطلعى إلى ما يفتقر إليه كل إنسان،

بل فكرى فيما بقى لكل واحد منا،

فكرى فيما بقى لك يا أميرة .

الأميرة : ما بقى لى ؟ الصبر يا إليونورا !

تعلمت أن أمارسه من عهد الشباب .

عندما كان أصحابى وأخوتى

يستمتعون معًا بالأعياد والألعاب،

---

(٢) كانت ريناتا، والدة الأميرة وشقيقتها لوكرتسيا، ابنة لويس الثانى عشر ملك فرنسا، وكانت على علاقة بالمصلح الدينى المشهور "كالفين" الذى أقام بضعة شهور فى بلاط «فرارا»، واعتنقت مذهبه . وعندما اكتشف ذلك حرمت من تربية أطفالها، واضطر ابنها بعد توليه الحكم إلى الخضوع لمحكمة التفتيش وطردها من البلاد، حيث ماتت فى فرنسا وطنها الأول .

كان المرض يحبسنى فى حجرتى
وكان علىّ أن أرافق الأحزان
وأن أتعلم الحرمان قبل الأوان .
شيء واحد كان يسلينى فى وحدتى،
هو متعة الغناء؛
كنت أسلى نفسى بنفسى،
وأهدهد الألم والشوق والأمنيات
على رنين الأنغام الهادئة .
هنالك كان يتحول الألم فى كثير من الأحيان
إلى متعة والشعور الحزين نفسه إلى انسجام .
غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلاً
فسرعان ما حرمنى منها الأطباء،
وحكموا علىّ بالصمت . كان علىّ أن أعيش وأتعذب،
وأحرم من عزائى الوحيد المسكين .

ليونورا : ولكن الكثيرين من الأصدقاء وجدوا طريقهم إليك،
وأنت الآن صحيحة وفرحة بالحياة .

الأميرة : صحيحة، نعم، أعنى أننى لست مريضة؛
وعندى من الأصدقاء من يسعدنى وفاؤهم .
كذلك كان لى صديق –

ليونورا : وما زال .

الأميرة : وسوف أفقده عن قريب .

كانت اللحظة التي رأيته فيها أول مرة

لحظة حافلة بالمعانى . كنت لم أكد أشفى من عذابى؛

الألم والمرض لم يكونا قد فارقانى،

عدت أنظر إلى الحياة نظرة هادئة رضية،

وأبتهج بالنهار وبالقرب من أخواتى،

وأذوق بلسم الأمل العذب فى ثقة ورجاء .

وجدت الشجاعة التى تجعلنى أنظر إلى المستقبل،

وطالعتنى من علىّ البعد وجوه صديقة .

هنالك، يا إليونورا، قدمت إلى شقيقتى ذلك الشاب،

كان يضع يده فى يدها، وأستطيع أن أعترف لك

بأن قلبى تشبث به، وسوف يحتفظ به علىّ الدوام .

ليونورا : آه يا أميرتى، لا تأسفى على شىء !

فالنفس التى تتعرف على النبل،

تحصل على كنز لا ينتزع منها إلى الأبد .

الأميرة : كل ما هو جميل ورائع

يُخشى منه كما يُخشى من اللهب،

الذى يتألق ويزدهر،

ما دام يرسل نوره فى مسكنك،

وما دامت شعلته تضىء لك .

ما أرق هذا الضوء ! ومن ذا الذى يريد

أو يستطيع أن يستغنى عنه ؟
فإذا مضى يلتهم ما حوله.
فما أبشع الشقاء الذى يسببه !
دعينى الآن . إننى أثرثر، وكان يحسن بى
أن أخفى ضعفى ومرضى،
عنك أنت أيضًا .

ليونورا : إن أسهل ما يبدد مرض الروح،
أن يثق الإنسان بأصحابه ويبثهم شكواه .

الأميرة : إذا كانت الثقة تشفى، فسوف أشفى سريعًا؛
فأنا أثق فيك ثقة خالصة وكاملة .
آه يا صديقتى ! لقد صممت، فليرحل إذن !
لكننى أحس من الآن
بالألم الطويل الممل على مدى الأيام،
حين يكتب علىّ الحرمان من مصدر سعادتى .
الشمس لن تقوى أن تزيل من جفونى
صورته الجميلة المضيئة؛
والأمل فى رؤياه لن يملأ الروح
والذى كاد يستيقظ بالشوق البهيج
ونظرتى الأولى فى حدائقنا
ستبحث عنه عبثًا فى ندى الظلال .
كم كُنْتُ أحس بالرضا الجميل

حين أمضى معه أمسياتى الهادئة !

وكم كان اللقاء معه يزيد

رغبتنا فى معرفة أنفسنا وفهمها !

وفى كل يوم يرقى الوجدان

إلى سماء الانسجام الصافية .

يا للغيوم التى تسقط الآن على عينىّ !

روعة الشمس وبهجة الضحى،

وسنون العالم البهى الألوان،

قد غاصت الآن فى هوة الفرا غ

ولفها الضباب الذى يحيط بى .

كل يوم عشته كان حياة كاملة،

تسكت الهموم فيه وتخرس الهواجس

ويحملنا التيار كالمسافرين السعداء

على موجه الهادئ بغير مجداف .

ها هو الحاضر يظلم

والخوف من المستقبل يتسلل إلى قلبى .

ليـونـورا : سيعيد إليك المستقبل أصدقاءك،

وسيحمل إليك فرحًا جديدًا وسعادة جديدة .

الأمـيـرة : أود أن أحتفظ بما أملكه :

فالتغيير قد يسلى، لكنه لا يكاد يفيد .

أبدًا لم يدفعنى حماس الشباب

لأنْ أمد يدى فى وعاء الأقدار،

الذى يحتشد بمصادفات العالم الغريب

طمعاً فى شىء يرضى قلبى المتلهف الغرير .

لقد حملنى على احترامه، ولذلك أحببته؛

ووجدتنى أحبه، لأن حياتى معه

تحولت إلى حياة لم أعرفها من قبل .

فى أول الأمر قلت لنفسى : ابتعدى عنه !

وكلما هربت منه، وجدتنى أزداد قرباً

وأحس عذوبة الانجذاب وقسوة العقاب !

واختفت السعادة الصافية الحقة من حياتى،

وجاءت روح شرير فخدعت أشواقى

وأبدلت بالآلام سعادتى وأفراحى .

ليونورا : إن عجزت كلمات صديقة أن تحمل إليك العزاء،

فسوف تستطيع القوى الخفية للعالم الجميل

ويستطيع الزمن الرحيم علىّ غير انتظار،

أن يعيدا البهجة إليك .

الأميرة : حقاً إن العالم جميل ! وفى أرجائه الواسعة

ينتشر الخير هنا وهناك .

آه ! لماذا يبدو لنا الخير علىّ الدوام

كأنه لا يبتعد عنا إلا خطوة واحدة،

ويظل الحنين إليه على مدى الحياة،

يجذبنا خطوة فخطوة إلى القبر ؟
من النادر أن يدرك الناس
ما كانوا يحسبونه من نصيبهم
ومن النادر أن يحتفظوا طويلاً
بما استطاعت اليد السعيدة أن تمسك به !
السعادة التى لم تكد تهب نفسها لنا تفلت منا،
وأيدينا تتخلى عما تشبثت به فى نهم.
السعادة موجودة، لكننا نجهلها؛
أو نحن نعرفها، ولكننا لا نعرف كيف نقدرها .

المشهد الثالث

ليونورا : (وحدها) أيها القلب النبيل الجميل، كم أرثى لك!
ويا للقدر الحزين الذى نزل بروحها السامى!
آه ! إنها تفقده، وتفكرين أنت في أن
تكسبيه ؟
أمن الضرورى حقًّا أن يبتعد؟
أم تراك تدبرين هذا الرحيل، كى تستحوذى
على القلب والمواهب، التى اقتسمتها حتى الآن
مع غيرك، وما كانت القسمة عادلة ؟
أمن الأمانة أن تسلكى هذا السلوك ؟
أليست لديك الثروة التى تكفيك ؟ هل
يعوزك شىء ؟
عندك الزوج والولد والغنى، ولديك
المركز والجمال،
تملكين هذا كله، وتطمعين أن تضيفيه إلى
ما تملكين ؟

أتحبينه؟ لماذا يشق عليك إذن أن تزهدى
فيه؟
تستطيعين أن تصارحى نفسك - فما أجمل
أن ترى صورتك
منعكسة على روحه الجميلة !
ألا تتضاعف سعادتك وتزداد روعة
حين ترفعك أشعاره فوق السحاب ؟
هنالك تكونين جديرة بالحسد ! ولا تقنعين
بما يحلم به كثيرون سواك،
بل يفرحك أن تبهرى عيون الجميع !
وينادى الوطن باسمك. ويتطلع إليك،
وتلك هى ذروة السعادة والهناء .
أتكون «لاورا»[1] هى الاسم الوحيد
الذى تترنم به شفاه المحبين ؟
وهل كان من حق «بتراركا» وحده
أن يرفع الجميلة المجهولة إلى السماء ؟
أين الذى يستطيع أن يقارن نفسه بصديقى ؟
إذا كان العالم يكرمه اليوم،

---

(١) هو اسم المحبوبة التى يتغنى بها الشاعر الإيطالى «بتراركا» (١٣٠٤ - ١٣٧٤) فى أغانيه، وإن لم يذكر اسمها أبدًا فى أشعاره .

فسوف تهتف باسمه الأجيال القادمة .

ما أجمل أن تعيشى بجانبه

فى هذا المجد الرائع !

وتمضى معه إلى المستقبل

بخطى خفيفة مجنحة !

لا الزمن عندئذ ولا الشيخوخة

يستطيعان أن ينالا منك،

ولا الصيحات الوقحة

التى تتقاذفها أمواج النجاح :

إن أشعاره تخلد ما من طبعه الفناء

وسوف تظلين جميلة وسعيدة

حين تكون نورة الحياة،

قد جذبتك معها من زمن بعيد .

يجب أن يكون لك،

ولن تسلبى صديقتك شيئًا،

فعاطفتها نحو الرجل النبيل

لا تختلف عن بقية عواطفها .

إن نورها كضوء القمر الشاحب

الذى لا يكاد يكشف للمسافر

طريقه فى عتمة الليل :

وهى لا تنشر الدفء حولها

ولا تسكب الفرح والبهجة بالحياة .

ستكون سعيدة حين تعلم،

أنه على البعد سعيد،

كما كانت تفعل حين تراه كل يوم .

ثم إنني لا أريد أن أنفى نفسى،

أو أنفى صديقى عنها أو عن هذا البلاط :

بل سأعود مرة أخرى وأحضره معى .

ليكن الأمر كذلك ! - ها هو ذا الصديق

الغليظ .

لنر إن كنا سنستطيع ترويضه !

المشـهـد الرابع

(ليـونـورا - أنـطـونيـو)

ليـونـورا : بالحرب جئتنا لا بالسلام،
وكأنك قادم من معسكر أو معركة،
حيث تحكم القوة وتحسم الذراع،
لا من روما حيث ترفع الحكمة الحفية
يدها لتبارك عالمًا تراه
يركع عند قدميها ويطيعها عن طيب خاطر .

أنطونيـو : لابد لى، يا صديقتى الجميلة، أن أقبل العتاب
لكننى لن أبحث بعيداً عن وجه للاعتذار .
من الخطر على الإنسان أن يضطر طويلاً
إلى الظهور فى مظهرالحكمة والاعتدال .
فهناك روح شريرة تقف إلى جانبنا وتترصدنا
ويصرح على طلب الضحية من حين إلى حين .
ويشاء سوء الحظ فى هذه المرة،
أن أقدم لها الضحية على حساب الأصدقاء .

ليونورا : لقد عنيت طويلاً بشئون الغرباء

وبذلت الجهود فى كسب رضاهم،

والآن بعد أن عدت إلى الأصدقاء

تسىء فهمهم وتجادلهم كأنهم غرباء.

أنطونيو : هنا، يا صديقتى العزيزة، يكمن الخطر!

فالإنسان يتحكم فى نفسه مع الغرباء،

ويظل متيقظًا، وهدفه أن يرضيهم لكى يخدموه،

أما مع الأصدقاء فيترك نفسه على سجيتها،

ويطمئن إلى حبهم، فيبيح لنفسه

أن يبدى نزوة أو يطلق لعواطفه العنان،

وهكذا يكون أول من نجرح شعورهم،

هم أكثر من نكِّن لهم الحب .

ليونورا : بهذه الخواطر الهادئة يا صديقى العزيز

يسعدنى أن ألقاك كما عهدتك من جديد .

أنطونيو : نعم يؤلمنى - وهذا ما أود أن أعترف به.

أن أكون اليوم قد فقدت الاعتدال .

ولكن صارحينى، ألا يشعر الرجل الذى يعود

من عمله الشاق مجهود الجبين

ويطمع فى أن يلتمس الراحة فى آخر المساء،

فى الظل الحبيب كى يتأهب لعمل جديد،

ثم يجد إنسانًا خالى البال

يتمدد فى الظل على هواه.
ألا يحس عندئذ بعاطفة
بشرية تثور فى صدره ؟

ليـونـورا : إذا كان إنسانا بحق، فسوف يسعده
أن يقتسم الظل مع رجل آخر
يجعل الراحة حلوة والعمل خفيفاً
بحديثه العذب وأنغامه الرقيقة .
الشجرة كبيرة يا صديقى والظل كريم
ولا حاجة بأحد لأنْ يزحزح غيره .

أنطونيـو : لا نريد يا ليونورا أن نلعب بالأمثال
كما نلعب بالكرة من يد إلى يد،
فكم فى هذا العالم من أشياء
نحب لغيرنا أن يفوز بها، كما نحب أن نشاركه فيها؟!
على أن هناك كنزاً لا نحب أن يفوز به
إلا من يستحقه،
وكنزاً يعز علينا أن يشاركنا فيه
إنسان مهما ارتفعت مكانته.
فإذا سألتنى عن هذين الكنزين
قلت هما إكليل الغار والحظوة عند النساء

ليـونـورا : أيكون الإكليل الذى توج جبين الشاب،
قد أهان الرجل الجاد؟ أكان فى استطاعتك

أن تجد لجهوده وشعره البديع مكافأة أكثر تواضعًا؟
ذلك لأن الفضل الذى يسمو فوق العالم الأرضى
ويرف فى الهواء، فلا تسحر أرواحنا
إلا بأنغامه وصوره اللطيفة،
يستحق كذلك أن يكافأ
بصورة جميلة أو رمز لطيف .
وإذا كان هو نفسه لا يلمس الأرض
فإن مكافأته السامية لا تكاد تلمس جبينه .
إن الغصن اليابس هو الهدية،
التى تقدمها له العواطف اليابسة،
التى يحس بها المعجبون نحوه
لكى تتخفف بأيسر وسيلة من دينها له .
أيمكنك أن تحسد تمثال الشهيد
على الهالة الذهبية التى تحيط برأسه الأصلع ؟
أينما بدا لك إكليل الغار، فهو بغير جدال،
علامة العذاب قبل أن يكون علامة الفرح .

أنطونيو : أتريدين أن أتعلم من فمك الرقيق
كيف أحتقر كل ما على الأرض من غرور؟

ليونورا : لست بالطبع فى حاجة إلى أن أعلمك
كيف تقدر كل شيء بميزانه الصحيح .
ولكن يبدو أن الحكيم يحتاج

من حين إلى حين كغيره من الناس
أن يريه الإنسان النعم التى يملكها
ويعرضها عليه فى ضوئها الصحيح .
أنت يا صديقى النبيل لن يغريك الطموح
بالسعى وراء أوهام الحظوة والشرف .
إن الخدمات التي تعرف كيف تربط بها
بينك وبين الأمير والأصدقاء
هى خدمات واقعية وحية،
ولذلك ينبغى أن تكون مكافأتك عليها
مكافأة من الواقع والحياة نفسها .
إن إكليل الغار الذى يليق بك هو ثقة الأمير،
وهو العبء الجميل الذى يستقر
على كتفيك كحمل خفيف؛
وسمعتك هى الدليل
على ثقة الجميع فيك .

أنطونيـو : ألا تقولين شيئًا عن الحظوة عند النساء ؟
أم تريدين أن تصورى لى أنه من السهل الحرمان منها ؟

ليـونـورا : لتتصور ما تشاء . فأنت لست محرومًا منها،
ومن السهل عليك أن تحتمل هذا الحرمان،
الذى لا يقوى عليه صديقنا الطيب .
قل لى : إن أرادت امرأة أن ترعاك على طريقتها،

وأن تهب نفسها لك :

فهل يمكنها أن تجد فرصة للنجاح ؟

كل شيء لديك نظام وأمان،

إنك تهتم بنفسك كما تهتم بغيرك،

وتملك دائمًا ما يود الإنسان أن يعطيك إياه .

أمَّا هو، فيحرك فينا طبيعة النساء؛

فهناك ألف شيء صغير ينقصه

ويسعد كل امرأة أن تقدمه إليه؛

إنه يحب أن يلبس الرداء من الكتان الجميل،

أو يرتدى الثوب من الحرير المشغول .

وهو يحب أن يتزين، بل إنه لا يحتمل

القماش الخشن الذى يدل على الخدم والرقيق .

ولا يرضى بشىء لا تجتمع فيه

الأناقة والجودة والنبل والجمال .

ومع ذلك، يعجزه أن يحصل على هذا ،

وإن حصل عليه فشل فى المحافظة عليه؛

ودائمًا ما نراه فى حاجة إلى المال والنظام .

يترك قطعة من ملابسه هنا، وقطعة أخرى هناك،

وما من مرة عاد من سفر،

إلا وقد ضيع ثلث حاجاته .

وأسرع الخادم بسرقته .

هكذا يا أنطونيو يظل الإنسان
فى قلق عليه طول العام .

أنطونيـو : وهذا القلق يجعله أعز وأحب .
ما أسعده من شاب تحسب عيوبه فضائل،
ويتاح له فى سن الرجولة أن يمثل دور الغلام،
ويجعل من ضعفه الرقيق ذريعة للمجد والافتخار !
يجب أن تعذرينى يا صديقتى الجميلة،
إذا كنت أعبر عن نفسى بشىء من المرارة .
إنك لا تقولين كل شىء، بل تسكتين
على ما يتجرأ عليه، ولا تقولين
إنه أخبث بكثير مما يتصور الإنسان .
إنه يفتخر بإشعال نارين !
ويربط عقدة هنا ويحلها هناك
ويكسب بمثل هذه الألاعيب أمثال هذه القلوب !
أيمكن أن يصدق الإنسان هذا ؟

ليـونـورا : حسن ! إن هذا نفسه يكفى لإثبات
أن المحبة وحدها هى التى تحيى القلوب .
وإذا بادلنا الحب بالحب، ألا نكون
قد كافأنا القلب الجميل مكافأة ضنينة،
وهو الذى نسى نفسه وعاش فى حلم جميل
واهبًا حياته كلها لأصدقائه ؟

أنطونيـو : دللنه وزدن فى تدليله،

اجعلن من أنانيته حبًا،

أهِّن كل الأصدقاء الذين وهبوا نفوسهم الوفية لكُن،

قدمن للمغرور الطاعة والولاء،

حطمن روابط الثقة، التى كانت

تؤلف بيننا فى وئام جميل !

ليـونـورا : لسنا متحيزات بالقدر الذى تظن،

فكثيراً ما ننبه صديقنا وننهاه؛

ونسعى لتربية وجدانه، بحيث يستطيع

أن يسعد نفسه ويقدم السعادة لسواه .

أما العيوب التى تأخذها عليه

فهى كذلك لا تخفى علينا .

أنطونيـو : ومع ذلك، فكثيراً ما تمدحن ما يستوجب الملام .

أنا أعرفه من زمن طويل،

وإنه من السهل التعرف عليه،

لأنه من الغرور بحيث لا يخفى نفسه .

أحيانًا يغوص فى نفسه، وكأن العالم كله

قد استقر فى صدره، أو كأنه اكتفى بعالمه

فتلاشى عنده كل شىء من حوله .

إنه عندئذ يتغاضى ويزهد،

ويطرح كل شىء، كى يعكف على نفسه -

وكما يتفجر اللغم فجأة من شرارة غير منتظرة،
كذلك يتفجر فرحه أو حزنه أو غضبه أو نزوته :
هنالك يبغى أن يضم كل شيء، ويحوز كل شيء،(١)
وهنالك يطالب بأن يتحقق كل ما كان يحلم به؛
وأن يتولد فى لحظة واحدة،
ما يحتاج إلى سنوات عديدة،
ويحل فى طرفة عين،
ما لا تحله الجهود فى أعوام .
إنه يطالب نفسه بالمستحيل،
لكى يبيح لنفسه أن يطالب به غيره .
ويريد أن يضم عقله
من كل شيء طرفيه البعيدين؛
قد لا يدرك ذلك واحد من المليون،
وما هو فى الحقيقة ذلك الواحد .
وهكذا يعود إلى الانطواء على نفسه،
بغير أن يصلح من أمره شيئًا .

(١) يشهد هذا البيت والأبيات التالية له على أن مشكلة «تاسو» قريبة من مشكلة «فاوست» . فكلاهما يحس بما يسميه «شيلر» فى تفسيره للمسرحية بالازدواج، أو بما تسميه الفلسفة المثالية الألمانية على لسان هيجل بالاغتراب . ولقد عبر «فاوست» عن ذلك فى أبيات مشهورة يقول فيها نفسان آه تسكنان صدرى، تود الواحدة لو تنفصل عن الأخرى ... إلخ ... ففى «تاسو» و«فاوست» شخصيتان تتشبث إحداهما كالدودة بالأرض، وتنزع الأخرى إلى سماء الحقيقة والمثل الأعلى .

ليونورا : إنه لا يؤذى غيره، بل يؤذى نفسه .

أنطونيو : ومع ذلك فهو يجرح إحساس الآخرين ...

هل تنكرين أنه حين يستولى عليه الانفعال

يتجرأ على إهانة الأمير والأميرة نفسها

ويتطاول على أى إنسان ؟

صحيح إنه يفعل ذلك في لحظة واحدة

ولكن هذه اللحظة تذهب وتعود .

وهو عاجز عن التحكم فى فمه،

عجزه عن التحكم فى قلبه .

ليونورا : أظن أنه إذا ابتعد عن هنا فترة قصيرة.

فربما ينفعه ذلك وينفع الآخرين .

أنطونيو : لست أدرى . فقد يفيد هذا وقد لا يفيد .

ومع ذلك فليس هذا هو أوان التفكير فيه .

لا أريد أن يقع الخطأ على كتفى ؛

فقد يبدو أننى أنفيه، وأنا فى الحقيقية لا أنفيه .

إننى لا أمانع فى بقائه فى البلاط؛

وإذا أراد أن يتصالح معى

وإذا استطاع أن يستمع لنصيحتى

فقد نستطيع أن نحتمل الحياة معًا .

ليونورا : أنت ترجو إذن أن تؤثر على الوجدان

الذى اعتقدت منذ لحظة أنه لا أمل فيه .

أنطونيو : نحن لا نقطع الرجاء،

فالأمل دائماً أفضل من اليأس .

ومن ذا الذى يضمن ما قد يحدث ؟

إنه يتمتع بتقدير الأمير .

ولا بد أن نحتفظ به بيننا .

وإذا لم تفلح جهودنا فى تقويمه،

فليس هو الوحيد الذى نصبر عليه .

ليونورا : لم أكن أتصور أنك تستطيع

أن تتجرد من التحيز والانفعال .

لقد تحولت تحولاً سريعاً .

أنطونيو : لعل مزية السن الوحيدة

أنه، وإن لم يجنبنا الخطأ،

فهو يجعلنا أقدر على التحكم السريع فى نفوسنا .

لقد بذلت جهدك فى أول الأمر

لكى توفقى بينى وبين صديقك .

وأنا الآن أطلب هذا بدورى منك .

افعلى ما تستطيعين حتى يعود إلى رشده

ويرجع كل شىء إلى حاله القديم .

سأذهب بنفسى إليه إذا عرفت منك

أنه قد استعاد هدوءه،

وإذا رأيت أن زيارتى له

لن تزيد الحالة سوءاً .

ولكن افعلى الآن ما تريدين أن تفعليه؛

فسوف يعود ألفونس مساء اليوم، وسأكون فى

صحبته .

والآن الوداع !

المشهد الخامس

ليونورا : (وحدها) لم نتفاهم، يا صديقى العزيز، فى هذه المرة على رأى،
فمصلحتى لا تسير اليوم يداً فى يد مع مصلحتك .
سأحاول أن أستغل الساعات الباقية
وأكسب تاسو إلى جانبى .
الوقت قد أزف !

الفصل الرابع

حجرة

المشهد الأول

تاســـو : (وحده) هل صحوت من حلم

وتخلى عنك الوهم الجميل؟

أم هبط عليك النوم فى يوم رائع البهجة

ولم يزل يأسر روحك ويخيفها بقيوده الثقال؟

نعم، أنت تحلم فى اليقظة .

أين ذهبت الساعات التى كانت

تلف حول جبهتك أكاليل الزهور؟

وأين الأيام التى كانت روحك فيها ،

تعبر زرقة السماء على جناح الشوق الطليق؟

ومع ذلك فما زلت تعيش وتحس بوجودك،

تحس بوجودك ولا تدرى إن كنت تعيش .

أهو خطئى، أم خطأ إنسان غيرى

أن أحيا هنا حياة المذنبين؟

هل اقترفت جريمة، حتى يحق عليَّ العذاب ؟

أليس فى خطئى كله فضل يحسب لى ؟

رأيته فامتلأ قلبى بالأمل

وغرتنى الإرادة الطيبة،

فظننت أن من يحمل وجه إنسان

لا بد أن ينطوى على روح إنسان .

اندفعت إليه مفتوح الذراعين

فوجدت مكان القلب، القفل والمزلاج .

آه ! لقد كنت دبرت الطريقة التى أستقبل بها

ذلك الرجل الذى كنت أرتاب فيه من زمن طويل !

لتكن تجربتك مع ذلك ما تكون،

فعليك أن تتمسك بهذا اليقين :

لقد رأيتها ! لقد وقفت أمامى !

وتكلمت إلىّ، وسمعت كلامها !

نظرتها، وصوتها، ومعنى كلامها الرقيق

أملكها إلى الأبد، ولا يسلبها منى الزمان

ولا ينتزعها القدر ولا الحظ الغدار !

وإذا كانت روحى قد سارعت بالتحليق فى الأعالى،

وإذا كنت قد رعيت فى قلبى اللهيب الذى يأكلنى الآن،

فلست نادمًا على هذا، ولو دمر إلى الأبد حياتى .

وهبت لها نفسى وأطعت الإشارة
التى دعتنى إلى الهلاك وأنا فرحان .
ليكن ! فقد أثبت أننى جدير
بالثقة الغالية التى تعزينى
حتى فى هذه الساعة التى تنفتح لى فيها
البوابة السوداء التى تتوالى منها الأحزان .
أجل، لقد تم كل شىء ! وها هى شمس رضاه
الجميل
تأفل فجأة وتغيب؛
والأمير يحرمنى من نظرته الحنون
ويتركنى تائهاً على طريق ضيق كئيب .
ها هى الطيور البشعة تحوم حولى،
والموكب الملعون الذى يتبع الليل العجوز يدور حول
رأسى .
إلى أين، إلى أين أحرك خطاى،
لأفر من هذه الأسراب الكريهة التى تحاصرنى
وأنجو من الهاوية التى تفتح فوهتها لى؟

المشهد الثانى

(ليونورا - تاسو)

ليونورا : ماذا جرى ؟ أى غضب يا عزيزى،
وأى تهور دفعك إلى هذا ؟
كيف حدث ما حدث ؟
إننا جميعًا فى ذهول .
أين دماثتك وطبعك الرقيق،
ونظرتك النافذة، وعقلك السديد،
الذي يجعلك تؤدى لكل إنسان حقه،
وصبرك وجلدك الذى علمك أن تحتمل
ما يحتمله النبيل، وما يندر أن يتعلمه المغرور،
والتحكم الذكى فى الشفتين واللسان -
يا صديقى العزيز، إنى أكاد أنكرك .

تاســـو : وإذا كان كل هذا قد تبدد الآن ؟
وإذا كنت ترين الصديق الذى حسبتيه غنيًا
يقف أمامك الآن كما يقف الشحاذ؟

معك الحق، فلم أعد كما كنت،
ومع هذا، فما زلت كما كنت تعرفين .
الأمر يبدو لغزاً، ومع ذلك فلا لغز فيه .
القمر الوديع، الذى يسعدك بالليل،
ويسحر نوره عينيك ووجدانك
سحراً لا يقاوم، يلوح بالنهار
سحابة شاحبة ضئيلة تطوف بالسماء .
لمعان النهار قد أخفى ضيائى
إنكم تروننى، وتعرفوننى،
أما أنا فما عدت أعرف نفسى .

ليونورا : لست أفهم يا صديقى ما تقوله لى
على النحو الذى تقوله . أوضح لى ما تريد .
هل كدرتك إهانة الرجل الفظ
إلى الحد الذى أصبحت معه
تسىء فهم نفسك وتسىء فهمنا ؟
ضع ثقتك فىّ .

تاســـو : لست أنا المهان ما دمت ترين
أننى عوقبت عقاب المهين .
كان فى استطاعة السيف أن يحل الكثير
من عقد الكلام فى خفة وسهولة
غير أننى الآن سجين .

هل تعلمين – لا تفزعي يا صديقتي الرقيقة.

أن صديقك الآن في زنزانة ؟

إن الأمير يؤدبني كما يؤدب التلميذ .

أنا لا أحاسبه، ولا أستطيع .

ليونورا : يبدو عليك التأثير أكثر مما ينبغي .

تاسو : هل تحسبينني ضعيفًا وطفلاً،

إلى حد أن تفسد هذه الحادثة عقلي ؟

إن ما حدث لا يؤذيني في الصميم،

ولكن يؤذيني ما يعنيه بالنسبة لي .

دعي حسادي وأعدائي يفعلون ما يشاءون!

فالميدان خال ومتسع لهم .

ليونورا : إنك ترتاب بغير حق في الكثيرين،

وقد استطعت أن أقتنع بنفسي بهذا،

وأنطونيو نفسه لا يعاديك كما تتوهم .

إن النزاع الذي حدث اليوم ...

تاسو : إنني أدعه جانبًا، وأكتفي بالنظر إلى أنطونيو

كما كان قديمًا، وكما هو الآن .

كانت تضايقني منه دائمًا حكمته الجامدة

وحبه لتمثيل دور المعلم علىّ الدوام .

بدلاً من أن يبحث إن كان عقل المستمع إليه،

قد اهتدى بنفسه إلى الطريق الصحيح،

تجدينه يعلمك ويعظك بأشياء

تحسين بها أفضل منه وأعمق،

ولا يستمع إلى كلمة واحدة تقولينها

بل يسيء فهمك على الدوام .

هكذا يساء فهمك، يساء فهمك من مغرور،

يعتقد أنه يستطيع أن يتجاهلك بابتسامته !

أنا لم أبلغ من العمر ولا من الحكمة ما يجعلني

أكتفي بالصبر وأرد عليه بالابتسام .

لم يكن من الممكن أن نستمر على هذه الحال،

وكان لابد أن نتصادم في وقت قريب أو بعيد،

ولو تأخر الأمر لازداد سوءاً .

لست أعترف إلا بسيد واحد، هو السيد الذى

يطعمنى.

إننى أخضع له عن طيب خاطر، ولست أريد سيداً

سواه .

أريد أن أكون حراً فى تفكيرى وإبداعى،

فالعالم يضع لأفعالنا ما يكفى من القيود .

ليونورا : إنه كثيراً ما يتكلم عنك بالتقدير والاحترام .

تاســـو : تريدين أن تقولى بالحيطة والاحتراس، فى براعة

وذكاء.

وهذا هو الذى يغيظنى؛ ذلك لأنه يعرف

كيف يتلاعب بالألفاظ ويتحكم فيها
بحيث يصبح الثناء على لسانه هجاءً،
وبحيث لا يجرحك شيء كما تجرحك
كلمة ثناء تخرج من فمه .

ليونورا : وددت يا صديقى لو سمعت ما يقوله عنك،
وعن الموهبة التى آثرتك بها الطبيعة الخيرة .
إنه يحس بالتأكيد من أنت وماذا تملك
وهو يقدره كذلك حق التقدير .

تاســــو : آه صدقينى ! إن الوجدان الذى لا يحب إلاَّ ذاته
لا يمكنه أن يتخلص من عذاب الحسد الخالق .
مثل هذا الرجل قد يستطيع أن يغفر لغيره
الثروة والمكانة والجاه، لأنه يقول لنفسه :
أنت تملك هذا كله، وتستطيع أن تملكه إن شئت،
وإن أصررت وكان الحظ فى جانبك .
أمَّا هذا الذى تمنحه الطبيعة وحدها،
هذا الذى لا يستطيع الجهد ولا التعب أبداً أن يدركه،
ولا الذهب أو السيف أو الذكاء أن يغتصبه،
فذلك ما لا يمكنه أن يغتفره .
أتقولين إنه لا يحسدنى علىّ هذه الموهبة ؟
هو الذى يظن أنه إذا أجهد عقله البليد
استطاع أن ينتزع الحظوة من ربات الفنون؟

وإذا جمع أفكارًا من بعض الشعراء

ظن أنه قد أصبح شاعرًا ؟

لا، إنه قد يسلم لى برضاء الأمير،

الذى يود لو يستطيع أن يقصره على نفسه،

ولكنه لن يسلم لى بالموهبة التى أنعمت بها

ربات السماء على الشاب اليتيم المسكين .

ليونورا : آه ! ليتك ترى الأمور بوضوح كما أراها

إنك تخطئ الظن به، فليس فى الحقيقة كما تراه .

تاسو : إن كنت أخطئ الظن به، فما أُحبُّ هذا الخطأ

إلى نفسى !

إننى أعده ألد أعدائى، ولن يعزينى الآن

أن أخفف من نقمتى عليه . من الحمق أن يكون

الإنسان

منصفًا فى كل شىء؛ إن معناه أن يدمر نفسه بنفسه .

هل ينصف الناس فى معاملتهم لنا ؟ لا . لا !

إن الإنسان بكيانه المحدود

فى حاجة إلى الإحساس المزدوج بالحب والكره .

ألا يحتاج إلى الليل حاجته إلى النهار ؟

وإلى النوم كما يحتاج إلى اليقظة ؟

لا . لا بد من اليوم أن أجعل هذا الرجل

موضوعًا لكرهى العميق؛ ولا شىء يستطيع

أن ينتزع منى لذة الإحساس بكرهه
وإساءة الظن به على مر الأيام .

ليونورا : إن كنت تريد الإصرار على هذا الرأى
فلست أدرى، يا صديقى الغالى،
ما الذى يدعوك إلى البقاء فى البلاط .
إنك تعلم منزلته فيه .

تاســـو : وأعلم، يا صديقتى الجميلة، منذ عهد طويل
أننى أصبحت هنا شيئًا يمكن الاستغناء عنه .

ليونورا : لست كذلك، ولا يمكن أبدًا أن تكون !
إنك تعلم كم يحب الأمير، وكم تحب الأميرة أن
تعيش معهما؛
وإذا جاءت شقيقتهما التى تعيش فى أوربينو
فهى تجىء من أجل شقيقتها كما تجىء من أجلك .
إنهم جميعًا يضمرون لك الخير،
ويثقون فيك ثقة بغير حدود .

تاســـو : آه يا ليونورا ! أى ثقة هذه !
هل تحدّث معى مرة بكلمة واحدة فى شئون الدولة،
بكلمة واحدة جادة ؟
كانت كلما عرضت مسألة فى وجودى
راح يستشير فيها شقيقته وبقية الحاضرين
ولا يسألنى رأيى أبدًا . إنه لا يفتأ يقول :

أنطونيو قادم ! لابد أن تبلغوا أنطونيو !

اسألوا أنطونيو !

ليونورا : أنت تتهم، حيث ينبغي عليك أن تشكر .

إنه إن كان يحب أن يترك لك حريتك المطلقة،

فذلك لأنه يكرمك بقدر ما يستطيع .

تاســـو : بل يتركنى على راحتى، لاعتقاده بأننى لا أفيد

فى شىء .

ليونورا : لا يمكن أن تكون عديم الفائدة، لأن راحتك هى

مصدر قوتك .

ها أنت منذ وقت طويل ترعى الهم والضيق

فى قلبك، كما يفعل الطفل المدلل الحبيب .

لقد طالما فكرت فى الأمر وعدت للتفكير فيه :

على هذه الأرض الجميلة، التى يبدو كأن الحظ

اختارها لك،

لا يمكن أن تنمو مواهبك أو تزدهر . آه يا تاسو !

هل أشير عليك ؟ هل أجرؤ أن أقول لك ما فى نفسى ؟

إن عليك أن تبتعد !

تاســـو : لا تترفق، يا طبيبى العزيز، بالمريض !

ناوله الدواء حتى ولو كان مراً

اسألى نفسك، يا صديقتى الحكيمة الطيبة،

إن كان يمكن أن يشفى !

إني أرى كل شيء بنفسي . وا أسفاه ! لقد فات

الأوان !

أستطيع أن أغفر له، أما هو فلن يغفر لي .

وهم محتاجون إليه، أما أنا فلا يحتاج إليَّ أحد .

وهو ذكي، وأنا لست على شيء من الذكاء .

وهو يؤذيني، وأنا لا أحب ولا أقوى على رد أذاه .

أصدقائي يتغاضون عما يجرى، ويعيون أخرى يرونه .

إنهم لا يبدون أي مقاومة، حين كان ينبغي عليهم

أن يكافحوه .

أتعتقدين أنه عليّ أن أذهب ؟ أنا نفسي أعتقد هذا .

الودا ع إذن ! - وسوف أصبر على هذا الامتحان

لقد تخليتم عني، فلأجد القوة والشجاعة

التي تعينني على أن أتخلى بدوري عنكم !

ليونورا : آه ! إن الإنسان يميز على البعد في نقاء

ما يضل عقولنا على القرب .

ربما استطعت حينئذ

أن تعرف الحب الذي كان يحيط بك من كل جانب،

وربما استطعت أن تقدر قيمة الوفاء

الذي يصدر عن قلوب الأصدقاء الخلصاء

وكيف أن العالم الواسع لا يغني

عن أولئك الذين وجدوا الطريق إلى قلبك .

تاســـو : هذا ما سوف نراه ! فأنا أعرف العالم منذ الشباب
وأعرف كيف يسهل عليه أن يتركنا وحيدين عاجزين
ويواصل طريقه فى غير اكتراث
كما تفعل الشمس والقمر وبقية الآلهة !

ليونورا : إذا أنصتّ إلىّ يا صديقى،
فلن تكرر التجربة الحزينة أبداً .
إن كان لى أن أشير عليك
فاذهب أولاً إلى فلورنسا
حيث تتلقاك صديقة أحر لقاء .
لا تقلق ! فأنا نفسى هذه الصديقة
سأرحل فى خلال أيام
لألقى زوجى هناك، وليس شىء أحب إليه أو إلىّ
من أن نراك بيننا .
لن أقول لك شيئًا، فأنت تعرف بنفسك
ومن هو الأمير الذى ستعيش بقربه،
ومن هم الرجال والنساء الذين ترعاهم
هذه المدينة الجميلة بين ضلوعها .
ألا تقول شيئًا ؟ فكر فى الأمر ! وصمم على رأى !

تاســـو : يجذبنى ما تعرضينه علىّ، ويتفق كل الاتفاق
مع الرغبة التى أكتمها فى نفسى؛
غير أنه شىء جديد علىّ :

أرجوك أن تتركى لى فرصة التفكير
وسوف أستقر على رأى عن قريب .

ليونورا : سأذهب وفى نفسى أجمل الآمال
من أجلك، ومن أجلنا، ومن أجل هذا البيت .
فكر فى الأمر، وإذا أحسنت التفكير
فسوف يتعذر عليك أن تجد خيراً منه .

تاســـو : شىء واحد، يا صديقتى العزيزة !
خبرينى، ما هو إحساس الأميرة نحوى ؟
هل غضبت علىّ ؟ ماذا قالت ؟
هل اشتدت فى لومى ؟ كونى صريحة معى .

ليونورا : كان من السهل عليها أن تلتمس العذر لك، لأنها تعرفك .

تاســـو : هل فقدتُ تقديرها لى؟ تكلمى بغير تملق .

ليونورا : رضا النساء لا يفقده الإنسان بهذه السهولة .

تاســـو : وإذا رحلت، فهل تتركنى أمضى وهى راضية ؟

ليونورا : لا شك فى هذا، إذا عرفت أن الرحيل فى صالحك .

تاســـو : ألن أفقد عطف الأمير ؟

ليونورا : تستطيع أن تطمئن إلى كرمه .

تاســـو : وهل نترك الأميرة فى هذه الوحدة ؟
أنت سترحلين، وأنا، على قلة شأنى،
أعرف مع ذلك أن لى مكانة فى عينيها .

ليـونـورا : إننا نظل ننعم بصحبة الصديق
ما دمنا نعلم أنه على البعد سعيد .
سيسير كل شيء على ما يرام، فأنا أراك سعيداً
ولن ترحل ساخطاً عن هذا المكان .
الأمير هو الذى أمر بهذا، وأنطونيو سيسعى إليك .
وهو يلوم نفسه على المرارة التى جرح بها إحساسك .
أتوسل إليك أن تستقبله بغير جفاء .

تاســـو : إننى أستطيع أن أواجهه فى كل الأحوال .

ليـونـورا : ولتوفقنى السماء، يا صديقى العزيز،
أن أفتح عينيك قبل أن ترحل،
لأريك أنه ليس فى الوطن كله إنسان
يضطهدك أو يكرهك أو يتآمر عليك !
إنك تخطئ حقًا ! وكما تؤلف الشعر لتسعد الآخرين
أراك الآن - ويا للأسف ! - تؤلف نسيجًا غريبًا من الأوهام
لتؤذى به نفسك . أريد أن أفعل كل ما أستطيع
لكى أمزق هذا النسيج، حتى تسير حرًا
على طريق الحياة الجميل .
وداعًا ! وأنتظر منك ردًا سعيدًا .

المشهد الثالث

تاســـو : (وحده) إذن فهذا هو الآن واجبى؟

أن أعرف أنه لا أحد يكرهنى، ولا أحد يضطهدنى،

وأن المكر كله والدسائس الخفية كلها؛

إنما هى من نسيج خيالى !

أن أعترف بأننى أخطأت

وأننى أظلم كثيرين

لا يستحقون منى هذا الظلم !

وهذا فى الوقت الذى يتجلى فيه

حقى المطلق وخيانتهم الدنيئة

واضحة أمام وجه الشمس !

علىّ أن أشعر عميق الشعور

بأن الأمير يفتح لى صدره ويهبنى رضاه

ويغدق علىّ دون حساب عطاياه

فى حين أن أعدائى يستغلون ضعفه

فيعكرون نظرته إلىّ، ويقيدون بالطبع يديه !

هو لا يستطيع أن يرى أنه مخدوع،

وأنا لا أستطيع أن أثبت أنهم خادعون،
وعليّ أن ألزم الصمت، لا بل أنسحب من الميدان
لكى يخدع فى هدوء
ويضللوه على هواهم !
ومن الذى يقدم لى النصيحة ؟
من الذى يلح عليّ فى رفق وإصرار وذكاء ؟
إنها ليونورا نفسها، ليونورا سانفيتاله
الصديقة الرقيقة ! آه . إننى أعرفك الآن !
ما الذى جعلنى أصدق شفتيها !
لم تكن أمينة حين جاءت تؤكد لى
إخلاصها ورقتها بكلماتها المعسولة !
لا، لقد كانت وستظل خبيثة القلب،
تتسلل بخطى خافتة بارعة لتتقرب منى .
كم من مرة خدعت نفسى بنفسى فيها !
وما خدعنى فى الحقيقة إلا الغرور .
كنت أعرفها ولكننى كنت أداهن نفسى،
وأقول لها : هكذا تعامل غيرك،
ولكنها معك صريحة ووفية .
الآن أراها بوضوح، وأراها بعد فوات الأوان :
حين كنت أتمتع بالحظوة عند الأمير، كانت
تتقرب منى

وتبدى رقتها لى، أنا المحظوظ.
وما كدت أهوى، حتى أدارت ظهرها
عندما تنكر الحظ بدوره لى .
وها هى تقبل الآن، أداة في يد عدوى
تتسلل نحوى وتصفر أنغامها الساحرة كالحية الصغيرة،
كم كانت تبدو رائعة ! أروع من كل وقت مضى ؟!
وما أعذب كل كلمة كانت تخرج من شفتيها !
ومع ذلك فلم يستطع النفاق طويلاً
أن يخفى عنى نيتها الخبيثة . على جبهتها
كنت أقرأ بوضوح عكس ما كانت تقوله شفتاها .
فسرعان ما أحس بمن يبحث عن الطريق إلى قلبى
دون أن يكون صادقًا من قلبه .
أعلىّ أن أبتعد ؟ أن أذهب إلى فلورنسا بأسرع ما
أستطيع ؟
ولكن لماذا أذهب إلى فلورنسا ؟ إننى أرى الأمر
بوضوح .
هناك يحكم بيت الميديشى الجديد،
صحيح إنهم لا يجهرون بالعداء لـ «فرارا»
ولكن الحسد الصامت يفرق
بين القلوب النبيلة بيده الباردة .
وإذا حدث أن تلقيت من أولئك النبلاء

ما يدل على رضاهم السامى علىّ
- وذلك ما أتوقعه عن يقين.
فما أسرع ما سيحاول رجل البلاط
أن يثير الشك فى ولائى وعرفانى
وسهل أن يتم له هذا .
نعم، أريد أن أذهب، ولكن لا كما تريدون؛
أريد أن أمضى بعيداً، وأبعد مما تتصورون .
وماذا أفعل هنا ؟ من الذى يحرص علىّ ؟
آه ! لقد فهمت كل كلمة تصيدتها من شفتى ليونورا !
رحت أحدس بمعناها، مقطعاً، بعد مقطع
وأعرف الآن تماماً، ما تفكر الأميرة فيه .
أجل! أجل ! كل هذا حق، فلا تيأس !
«ستتركنى أرحل وهى راضية
إذا عرفت أن ذلك فى صالحى»
لو أنها أحست بعاطفة فى قلبها
ستدمر سعادتى وتدمرنى !
الموت أحب إلىّ من هذه اليد،
التى تتخلى عنى فى برود وجمود .
سأرحل ! فحاذر الآن أن تنخدع
بالصداقة والطيبة . ولن يقوى أحد على خداعك،
ما دمت لا تخدع نفسك .

المشهد الرابع

(أنطونيو - تاسو)

أنطونيو : ها أنا يا تاسو قد جئت لأتكلم معك،

إن أردت واستطعت أن تستمع إليّ في هدوء .

تاســو : إن الفعل، كما تعلم، محرم عليّ؛

فخليق بي الآن أن أنتظر وأسمع .

أنطونيو : إنني ألقاك هادئًا، كما كنت أتمنى

وأحب أن أتحدث إليك بقلب مفتوح .

وأبدأ فأنزع عنك باسم الأمير

القيد الواهي الذي بدا أنه يقيدك .

تاســو : التعسف هو الذي قيدني، وهو الذي يفك الآن قيدي .

إنني أقبل ما تعرضه عليّ، ولن أطالب بالتقاضي .

أنطونيو : إذن دعني أتكلم الآن عن نفسي،

ربما جرحتك كلماتي

جرحًا كان أعمق وأبعد من أن أحس به .

كنت في ذلك الحين معذب القلب بالأحزان .

على أن كلمة واحدة مهينة

لم تفلت من شفتى بلا تدبر :

ولن تجد فيها كرجل نبيل ما تثأر له

ولن تبخل كإنسان عليها بالغفران .

تاســـو : لن أبحث الآن إن كانت الإهانة

أو كان السب أشد إيذاءً ؟

فتلك تنفذ إلى النخاع، وهذا يخدش الجلد .

إن سهم السب يعود فيصيب

مَنْ ظنَّ أنه أصاب غيره بالجراح؛

والسيف الذى يجد اليد التى تحسن تسديده،

من السهل أن يرضى رأى الآخرين.

أما القلب المهان فمن العسير أن يجد الشفاء .

أنطونيـو : الآن أرى من واجبى، أن ألح عليك وأقول :

لا ترجع إلى الوراء، وحقق رغبتى،

التى يريدها منك، كذلك الأمير .

تاســـو : أنا أعرف واجبى، وسوف أطيع .

ولقد صفحت، بقدر ما أستطيع .

إن الشعراء يحكون لنا عن رمح

يستطيع بملمسه الرقيق

أن يشفى الجرح الذى أصابه(١)

---

(١) إشارة إلى إحدى الخرافات الإغريقية، التى تقول إن الملك «تليفوس» الذى أصابه رمح أخيل فجرحه لا يمكن أن يشفى حتى يلمسه هذا الرمح مرة أخرى .

إن لسان الإنسان يملك هذه القدرة؛
ولن أجعل الحقد يغلق دونها فؤادى .

أنطونيـو : أشكرك وأرجوك أن تضع رغبتى
في خدمتك على الفور موضع الاختبار .
قل لي : هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟
إننى أرحب بهذا كل الترحيب

تاســـــو : إنك تقدم لى ما كنت أتمناه .
لقد أعدتَّ إلىَّ حريتى، وأرجوك
أن تعطينى القدرة علىّ استخدامها .

أنطونيـو : ماذا تقصد؟ أوضح ما تقول .

تاســـــو : أنت تعلم أننى انتهيت من قصيدتى
ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال .
لقد سلمتها اليوم للأمير
وكنت أرجو أن أشفعها بالتماس .
إن عدداً كبيراً من أصدقائى
مجتمعون اليوم فى روما
وقد كتبوا إلىّ على حدة
برأيهم فى بعض الفقرات،
استطعت أن أفيد بكثير من هذه الآراء،
ولكن لا يزال الكثير فيما يبدو لى بحاجة إلى التفكير .
ولست أحب أن أغير فى مواضع كثيرة،

قبل أن ألقى منهم مزيدًا من الإقناع .
ولابد من وجودى لأحل عقدة بالحديث،
فكرت اليوم أن أطلب هذا من الأمير :
غير أننى لم أجد الفرصة سانحة؛
وليس من حقى الآن أن أتجرأ بالسؤال
لهذا أرجو أن أحصل على هذه الإجازة عن طريقك .

أنطونيو : لست أرى من العقل أن تبتعد الآن
بعد أن أنجزت عملك الذى يرضى عنك الأميرة
والأمير .
إن يوم الرضا كيوم الحصاد
إذا نضجت الثمار كان على الإنسان أن يعمل .
ولو ابتعدت الآن، فلن تكسب شيئًا
بل ربما خسرت ما كنت قد كسبت .
إن الحاضر إلهة قوية وقادرة
فتعلم أن تعرف تأثيرها، وابق هنا !

تاسو : لست أخاف شيئًا، فألفونس نبيل،
وقد كان دائمًا كريمًا معى؛
وما أرجوه منه أحب أن أناله من قلبه فحسب،
ولست أحب أن أتسول رضاه؛
لا أريد أن آخذ منه شيئًا
قد يندم لأنه أعطانى إياه .

أنطونيو : لا تطلب منه إذن أن يسمح لك بالرحيل؛
إنه لن يفعل ذلك إلا كارهًا
وأخشى ألا يفعله على الإطلاق .

تاســـو : سيرضى إذا عرف الإنسان كيف يرجوه
ولن يستطيع هذا، إذا شئت، سؤاك .

أنطونيو : ولكن قل لى : ما هى الحجج التى أقدمها إليه ؟

تاســـو : دع كل مقطع من قصيدتى يعبر لك عنها !
إن ما أردته جدير بالحمد والثناء
وإن ظل الهدف أبعد من أن تدركه قواى .
إننى لم أبخل عليها بالجهد والعناء .
كم من نهار جميل مشمس،
وكم من ليلة عميقة هادئة
وهبتها لهذه الأغنية النقية .
كنت أرجو، على تواضع حالى، أن أقترب
من أولئك المعلمين الكبار القدماء،
وتجاسرت أن أوقظ المعاصرين الأحياء
من نومهم الطويل لينهضوا بأعمال البطولة
ويشاركوا مع الجيش المسيحى العظيم
فى أمجاد الحرب المقدسة وأخطارها .
فإن استطاع نشيدى أن يوقظ أفضل الرجال
فلا بد كذلك أن يكون جديراً بهم .

إننى أدين لألفونس بما فعلت؛
وأحب الآن أن أشكره على إتمامه .

أنطونيـو : ولكن الأمير هنا، ومعه كثيرون
يستطيعون أن يهدوك كما يفعل أهل روما .
أتمم قصيدك هنا، فهنا المكان الذى يلائمه .
فإن أردت التأثير على الناس، فأسرع بعدها إلى روما .

تاســـو : كان ألفونس أول من بعث فىَّ الحماس للقصيدة،
وإذا لم أجد حكما سواه، فسوف أستمع يقينا إلى
نصيحته .
أما رأيك، ورأى الحكماء الذين جمعهم البلاط
فتأكد من أننى سأعرف قدره وقيمته
عليكم أن تقرروا إن كان أصدقائى
لم ينجحوا فى إقناعى بالسفر إلى روما .
ولكن لابد لى أن أراهم .
إن جونزاجا قد ألف المحكمة التى ينبغى علىَّ
أن أقدم نفسى إليها، ولست أطيق الانتظار .
فلا مينيودى نوبيلى، أنجيليودا بارجا،
أنطونيانو وسبيرون سبيرونى(١) !
لا شك أنك تعرفهم جميعًا .

---

(١) أسماء شعراء إيطاليين عرفهم جوته من كتاب سيراسى «مؤرخ حياة تاسو» الذى أشرت إليه فى المقدمة .

يا لها من أسماء رائعة ! تبعث الثقة
كما تشيع الخوف في روحى،
التى ستخضع لرأيهم عن طيب خاطر .

أنطونيو : أنت لا تفكر إلا فى نفسك وتنسى الأمير .
أؤكد لك أنه لن يوافق على رحيلك؛
وإذافعل، فسيكون ذلك بغير رضاه .
فهل تطلب منه مالاً يحب أن يعطيه ؟
وهل أمد يدى للتوسط فى شىء
لا أستطيع أنا نفسى أن أحبذه ؟

تاســـو : أترفض أن تقدم لى الخدمة الأولى،
التى أريد أن أختبر بها الصداقة التى تعرضها علىّ ؟

أنطونيو : إن الصداقة الحقة هى التى تعرف
كيف ترفض فى الوقت المناسب،
وكم يجلب الحب من أضرار،
كلما استجاب لنزوة الصديق بدلاً من مصلحته .
يبدو لى أنك فى هذه اللحظة
تعد ما تتلهف عليه خيراً،
وتريد أن تحقق فى طرفة عين
ما تشتاق إليه نفسك .
إن من يخطئ ويضل الطريق،
يضع العنف والجموح

مكان الحقيقة والقوة
اللتين يفتقر إليهما .
إن من واجبى، بقدر ما أستطيع
أن أخفف بالاعتدال من الغلواء
التى تؤذيك وتجنى عليك .

تاســــو : طغيان الصداقة هذا، أعرفه من وقت طويل،
وهو عندى أشد ألوان الطغيان .
إن تفكيرك يختلف عن تفكيرى
وهذا ما يجعلك تعتقد بأنه هو التفكير الصحيح .
إننى أعترف بأنك تريد الخير لى؛
فلا تطلب منى أن أسير على طريقك كى أفتش عنه

أنطونيـو : وهل تطلب منى أن أسعى فى برود إلى أذاك
وأضرك عن اقتناع كامل وواضح ؟

تاســــو : أحب أن أخلصك من هذا الهم !
فلن يصدنى عن هدفى شىء مما تقول .
لقد أعدت إلىَّ حريتى، وهذا الباب
الذى يؤدى إلى الأمير مفتوح أمامى .
أنت أو أنا ! إننى أترك لك الخيار .
الأمير ينوى السفر . وليست هناك لحظة نضيعها
فى الانتظار .

اختر على وجه السرعة ! فإذا لم تذهب أنت، -
فسأذهب أنا إليه، وليكن ما يكون .

أنطونيو : دعنى أطلب إليك أن تتريث قليلاً،
وتنتظر على الأقل حتى يعود الأمير،
لا تذهب اليوم إليه !

تاســو : بل سأذهب إليه الساعة، إن استطعت !
إنّ نعلىّ يلتهبان فوق هذا الرخام،
ولن تستريح روحى حتى يثور الغبار
ورائى على طريق الحرية . أتوسل إليك !
أنت ترى كم يتعذر علىَّ فى هذه اللحظة
أنْ أحسن الحديث مع مولاى،
أنت ترى - وكيف لى أن أخفى هذا ؟ -
إننى لا أستطيع فى هذه اللحظة أن أتحكم فى نفسى،
ولن تستطيع قوة على الأرض أن تسيطر علىّ .
الأغلال وحدها هى التى تقيدنى الآن !
ليس ألفونس طاغية، فقد أعاد إلىّ حريتى .
وما أحب إلى نفسى أن أطيع أوامره
لولا أننى اليوم لا أستطيع !
دعونى أتمتع بحريتى اليوم فحسب
حتى أعود إلى نفسى ! وسوف لا أتأخر عن أداء
واجبى .

أنطونيو : أنت تثير الحيرة فى نفسى . ماذا أفعل ؟
أرى الآن أن الخطأ يعدى .

تاســو : إن أردت منى أن أصدقك، إن أردت حقًا أن تعيننى
فأفعل ما أطلبه منك وما تستطيع
عندئذ يوافق الأمير على سفرى
دون أن أفقد عونه أو رضاه .
وسأحفظ لك هذا الجميل بالشكر والعرفان .
أما إن كنت تطوى فى صدرك حقداً قديماً،
أو كنت تريد أن تنفينى من هذا البلاط
وتجنى على سعادتى إلى الأبد
وتلقينى إلى العالم الشاسع بغير معين،
فابقَ على رأيك وقفْ فى طريقى !

أنطونيو : ما دمت يا تاسو تريد أن أؤذيك،
فسوف أختار الطريق الذى اخترته بنفسك .
وستكشف النهاية عمن المخطئ منا والمصيب !
أنت تصر على الرحيل ! فاسمع رأيى الآن :
لن تدير ظهرك لهذا البيت، حتى يحن قلبك للرجوع،
ويدفعك عنادك على طريق الهروب،
العذاب والاضطراب والاكتئاب
تنتظرك فى روما،
وستخطئ الهدف هنا وهناك .

على أننى لا أقول لك هذا لأنصحك؛
وإنما أتنبأ بما سيقع عن قريب
وأدعوك مقدمًا، من هذه الساعة
أن تثق بى فى أسوأ الأحوال .
وسأذهب الآن إلى الأمير
لأتكلم معه كما تريد .

المشهد الخامس

تاســـو : (وحده) نعم ! اذهب الآن وأنت على يقين
من أنك أقنعتنى بما تريد .
سأتعلم أن أضع قناعًا على وجهى،
فأنت المعلم الكبير، وأنا التلميذ الذى يفهم
بغير عناء .
هكذا تضطرنا الحياة أن نتظاهر،
لا بل أن نكون كأولئك الذين
كان فى مقدورنا أن نحتقرهم بجسارة
وكبرياء .
الآن تتضح لى كل ألاعيب البلاط !
أنطونيو يريد أن يطردنى ولا يريد
أن يظهر كأنه هو الذى يطردنى .
إنه يمثل دور المتسامح الحكيم
حتى يبين للناس أننى مأفون ومريض .
ويفرض وصايته علىّ، كى يجعلنى طفلاً
بعد أن أعجزه أن يجعل منى عبداً .

وهكذا ينشر الضباب حول جبهة الأمير
ويعكر نظرة الأميرة إلىّ .
لا بد من التمسك بى، هذا ما يفكر فيه
فقد أهدتنى الطبيعة موهبة جميلة،
لكنها، ويا للأسف، قد قرنت الهدية
بألوان من الضعف التى أساءت إلىّ :
بالغرور الجامح، والحساسية المفرطة
والشعور المتجهم العنيد .
لا حيلة لنا، فهكذا صوّر القدر هذا
الرجل الفريد،
وعلينا الآن أن نقبله على علاته ،
ونصبر عليه، ونحتمله، وليس ببعيد،
أن يأتى اليوم الجميل الذى نستمتع فيه
بالبهجة التى لم نكن ننتظرها منه .
وبعد هذا فلنترك له أن يعيش
أو فلندعه كما ولد يموت !
أهذا هو ألفونس وعزمه المكين،
الذى يرغم الأعداء بالشجاعة ويحمى
الأصدقاء بالوفاء ؟
أأستطيع الآن أن أتعرف عليه،
وهو يعاملنى هذه المعاملة ؟

أجل ! إننى أعرف الآن شقائى كله !

هذا هو قدرى الذى يجعل كل إنسان

يتغير نحوى فى نَفَسٍ واحد ولحظة واحدة .

بينما يظل مع غير الصديق الوفى الأمين .

ألم يكن ظهور هذا الرجل كافياً،

ليحطم مصيرى كله فى لحظة واحدة ؟

أليس هو الذى هدم سعادتى

من أساسها ولم يترك حجراً على حجر ؟

هل كان حتماً أن أقاسى هذه التجربة،

هل كان حتماً أن أقاسيها اليوم ؟

نعم . كان الجميع يتدافعون علىّ

والآن يتخلى عنى الجميع،

وكل من كان يحاول أن يشدنى إليه

وكل من كان يريد أن يستأثر بى

يصدنى الآن عنه ويتجنب طريقى .

وما السبب فى هذا ؟ أترجح كفته فى الميزان

كل ما كنت أحظى به من حب وتقدير ؟

نعم ! كل شىء يهرب الآن منى .

حتى أنت ! حتى أنت ! يا أميرتى المحبوبة

تتخلين الآن عنى !

إنها لم ترسل إلىّ فى هذه الساعات الكالحة

بعلامة واحدة تنبئ عن رضاها .

أكنت أستحق هذا منها ؟ يا قلبى المسكين !

يا من فطرت على عبادتها !

كنت لا أكاد أسمع صوتها، حتى ينفذ

إلى قلبى شعورٌ لا سبيل للتعبير عنه !

ولا أكاد ألمحها حتى يظلم فى عينىّ

ضوء النهار الوضاح؛

تسحرنى عيناها وشفتاها،

قدماى لا تعودان تحملانى،

وأهيب بكل ما فىَّ من قوة الروح

كى أتماسك أمامها ولا أسقط عند قدميها؛

وما من شىء ينقذنى من هذا الدوار .

تَثَبَّتْ يا قلبى ! وأنت يا عقلى المنير

لا تدع الضباب يلفك ويغشاك !

نعم ! هى أيضًا ! أأقولها بلسانى ؟ ولا أكاد

أصدق !

بل إننى أصدق، وأريد لو أخدع نفسى

بالكتمان .

حتى هى ! حتى هى ! أعذرها من كل قلبك

ولكن لا تُخفِ الحقيقة عن نفسك :

حتى هى ! حتى هى !

آه من هذه الكلمة، التي كنت أريد

أن أرتاب فيها،

ما دام تردد في صدرى نفس من الإيمان،

أجل، هذه الكلمة، إنها خاتم القدر

الذى يحفر رسمه على إطار من حديد

فى لوحتى التى امتلأت سطورها بالعذاب .

الآن سلبت إلى الأبد من كل قوة.

وكيف أحارب، وهى تقف فى جيش

أعدائي ؟

وكيف أصبر، وهى لا تمد يدها إلىّ من

بعيد ؟

ونظرتها لا تستجيب لدعائى ؟

لقد تشجعت على التفكير، واستطعت أن

ترفع صوتك،

وها هو الأمر حق، وبأسرع مما كنت

تخشى !

يكفيك قبل أن يقبض اليأس على عقلك

ويمزقه بمخالب من حديد،

أن تشكو القدر المرير

وتكرر لنفسك : حتى هى ! حتى هى !

الفصل الخامس

بستان

المشهد الأول

(ألفونس - أنطونيو)

أنطونيو : ذهبت، كما أشرت، للمرة الثانية
أبحث عن تاسو، وها أنا قادم من عنده،
بذلت جهدى لأقنعه، لا بل ألححت عليه،
غير أنه لا يريد أن يحيد عن رأيه
ويتوسل إليك أن تأذن له
بالسفر إلى روما لفترة قصيرة

ألفونس : لا أريد أن أخفى عنك سخطى،
وأفضل عندى أن أصارحك به،
علىّ أن أكتمه وأزيد حدته .
أيريد أن يسافر ؟! حسنا . لن أمنعه،
أيريد أن يتركنا ويذهب إلى روما ؟ ليكن له ما يشاء !
على ألا يأخذه سكيبيو جونزاجا

أو ينتزعه المديشى البارع منى[١] !
إن ما جعل إيطاليا بهذه العظمة
هو أن كل أمير ينافس جاره
فى الاستئثار بالموهوبين والانتفاع بهم .
والأمير الذى لا يجمع المواهب حوله
هو عندى كالقائد بلا جيش؛
ومن لا يهزه صوت الشعر
فهو متوحش، مهما علا شأنه .
لقد اكتشفت شاعرى واخترته بنفسى
وأنا أعتز به واحداً من رعاياى
فهل أتركه إلا مرغماً
بعد أن فعلت كل ما فعلت ؟

أنطونيـو : إننى فى حرج، لأننى أحمل
أمامك ذنب ما حدث اليوم؛
أنا أيضاً أريد أن أعترف بخطئى
الذى لا يغتفره إلا عفوك .
غير أننى سأظل بلا عزاء
إذا تصورت أننى لم أفعل
كل ما استطعت لأصالحه .

---

(١) المقصود هو الكاردينال فرناندودى مديشى شقيق أمير توسكانا الأعظم .

آه لا تحرمني من نظرتك الحنون
حتى أتماسك وأستعيد الثقة في نفسي .

ألفـونس : لا يا أنطونيو، فلتهدأ نفسك
فأنا لا ألقي عليك أي ذنب؛
أنا أعرف تفكير هذا الرجل خير المعرفة
وأعلم تمام العلم ما فعلت من أجله،
وكيف ترفقت به وتسامحت معه،
ونسيت ما كان من حقي أن أطلبه منه .
قد يستطيع الإنسان أن يسود الكثير،
لكنه يحتاج للزمن كما يحتاج للمحن والخطوب .
لكي يتمكن من السيادة على نفسه .

أنطونيـو : أليس من الإنصاف أن يسأل الإنسان نفسه
حين يرى ما يفعله الآخرون من أجله
ماذا أستطيع أن أقدمه لمنفعتهم ؟
ومن ثقف عقله إلى هذا الحد،
وجمع العلوم من أطرافها،
وحصل ما في طاقة الإنسان تحصيله
ألا يكون ملزماً أكثر من غيره
بالتحكم في نفسه ؟
أليس عليه أن يفكر في هذا ؟

ألفونس : كتب علينا ألا نذوق طعم الراحة !
فلا نكاد نفكر فى التمتع بها
حتى نصادف عدواً نختبر معه شجاعتنا
أو نرزق صديقاً نجرب معه صبرنا .

أنطونيو : هل تراه يحقق الواجب الأول على الإنسان،
الذى يفرض عليه أن يختار طعامه وشرابه،
ما دامت الطبيعة لم تقيده كما قيدت الحيوان ؟
ألا يضعف كما يضعف الأطفال
أمام كل ما يثير لعابه ؟
ومتى رآه أحد يمزج خمره بقليل من الماء ؟
إنه ينتقل من التوابل إلى الحلوى إلى المشروبات القوية
ليبتلعها فى نهم واحدة بعد الأخرى
ثم يشكو بعد ذلك من كآبة روحه،
واضطرام دمه وحدة طبعه
ويلقى اللوم على الطبيعة والقدر .
كم من مرة رأيته يجادل طبيبه؟
ويلقى الكلام فى مرارة وحمق؟
وكم أوشكت على الضحك، لو كان يضحك
ما يعذب الإنسان ويضايق غيره؟
إنه يقول فى قلق: «أشعر بهذا الألم»
ثم فى ضيق : «فيم تفاخر بفنك ؟ - أوجد لى العلاج» !

ويرد الطبيب : «حسن ! فامتنع عن هذا وذاك»

- «لا أستطيع»

- «إذن فاشرب هذا الدواء»

- «لا . إن طعمه البشع يملؤنى بالاشمئزاز»

- «إذن فاشرب ماء»

- «أشرب ماء ؟ مستحيل ! إننى أخاف الماء كما يخافه مَنْ عضه كلب» .

- إذن فلا أستطيع أن أفعل لك شيئًا .

- وما السبب ؟

- لأن الداء سيجر غيره معه، وإذا لم يقتلك فسوف يزيد عذابك كل يوم .

- شىء جميل ! وما الفائدة إذن من أن تكون طبيباً ؟
إنك تعرف دائى، ومن واجبك أيضًا أن تعرف الدواء
وتحبب طعمه إلىّ، حتى لا أضطر إلى العذاب
لكى أتخلص من العذاب .
أراك تبتسم، أليس هذا هو الذى يحدث ؟
ألم تسمعه بنفسك من فمه ؟

ألفـونس : كثيراً ما سمعته وغفرته له .

أنطونيـو : حقًا إن حياة بعيدة عن الاعتدال
تملأ نومنا بالكوابيس الثقال،

وتسوقنا إلى الحلم فى وضح النهار .
حيثما ذهب، ظن نفسه محاطًا بالأعداء .
وظن أن كل من يعترف بموهبته يحسده،
وكل من يحسده يحقد عليه ويضطهده .
كم من مرة ضايقك بشكواه ؟
بالأقفال التى كسرت، والرسائل التى فتحت
والسم والخنجر ! وكل ما يطوف بخياله !
ولقد أمرت بالبحث، وبحثت بنفسك
فهل وجدت شيئًا ؟ لا أثر !
لا رعاية أمير تشعره بالأمان
ولا قلب صديق يرويهِ بالحنان .
ألمثل هذا، تريد الراحة والهناء ؟
أترجو لنفسك منه السعادة والصفاء ؟

ألفونس : لو كنت أريد منه منفعة قريبة
لكان لك الحق فيما تقول يا أنطونيو !
أليس فى صالحى أننى لا أنتظر
منفعة عاجلة مباشرة ؟
إن كل شىء يخدمنا على طريقته؛
ومن أراد أن يستخدم الكثير
فليستخدم كل شىء بما يتفق وطبيعته

وبهذا تتحقق له المنفعة .
هذا هو الدرس الذى علمنا إياه آل مديشى،
وهذا ما برهن عليه البابوات بأنفسهم .
كما من عبقرى رعاه هؤلاء الرجال
بالسماح والصبر وطول الأناة؟
وكان يظن أنه فى غنى عن نعمتهم
ومع ذلك لم يستطع أن يحيا دونها !

أنطونيو : ومن يجهل هذا يا أميرى ؟ إن التعب فى الحياة
هو وحده الذى يعلمنا تقدير عطاياها .
لقد نعم بالكثير حين كان لا يزال صغيراً
فلم يقنع بالمتع القليلة .
ليته يعرف أولاً كيف ينعم
بما تغدقه الأيدى السخية عليه :
إذن لاستطاع أن يحزم قواه
ويشعر بالرضا خطوة فخطوة .
إن الرجل النبيل الذى لا يملك ثروة
يستطيع أن يبلغ أسمى أمانيه
إذا جعله أمير عظيم من رفاقه
وحرره بيده الرقيقة من الضيق .
فإذا حباه، كذلك ثقته ورضاه

واصطفاه بجواره على كل من عداه،
فى الحرب والحكم والحديث
فقد يبدو لى أن الرجل المتواضع
يستطع أن يشكر حظه فى صمت .
وتاسو يزيد على هذا كله
أروع ما يمكن أن يحظى به شاب :
فالوطن يكرمه ويعقد عليه الآمال .
صدقنى إن قلت إن مزاجه الغريب
يتقلب على مخدة حظه السعيد .
ها هو قادم . فسرِّحه فى كرم
ليلتمس فى روما أو نابولى أو حيث شاء
ما يتفقده هنا، وما لن يجده فى غير هذا المكان .

ألفونس : أيريد أن يسافر أولاً إلى «فرارا» ؟

أنطونيو : بل يرغب أن يبقى فى «بلرجواردو»،
ويكلف أحد أصدقائه أن يرسل إليه
أهم ما يحتاجه فى رحلته .

ألفونس : بكل سرور . ستبادر شقيقتى بالعودة إلى المدينة
مع صديقتها، وسأسبقهما على جوادى .
وستلحق بنا بعد أن ترعى شئونه .
مُرْ الحاجب بأن يقوم بما يلزم
ليبقى فى القصر إلى ما يشاء،

حتى يرسل أصدقاؤه إليه المتاع
وتصله الرسائل التى أحب أن أعطيها له
ليأخذها معه إلى روما . ها هو قادم
الوداع !

المشهد الثانى

(ألفونس - تاسو)

تاســـو : (فى تحفظ) عطفك الذى طالما غمرتنى به
يتجلى لى اليوم فى أبهى ضياء .
الاثم الذى ارتكبت فى جوارك
عن طيش، غفرته لى .
خصمى جعلته يمد يديه إلىّ
وتريد الآن أن تأذن لى
بالبعد قليلاً عن جوارك،
ويشاء مع ذلك قلبك الكريم
ألاّ يحرمنى من رضاه .
سأرحل عنك وملئى الثقة،
وأبعد عنك وكلى رجاء،
بأن غيابى هذا القصير
سيشفى هموم الفؤاد الكسير .
أريد أن تسمو روحى من جديد

وأسعى على الدرب، الذى شجعتنى نظرتك الحنون
على السير عليه فى سعادة وجرأة،
لكى أعود جديراً بعطفك .

ألفونس : أتمنى لك الحظ السعيد فى رحلتك
وأرجو أن نراك بيننا من جديد
مبتهج النفس فى أطيب حال .
عندئذ ترد إلينا المكسب مضاعفاً
عن كل لحظة حرمتنا منها .
سأعطيك رسائل لرجالى وأصدقائى فى روما
وأرجو أن تعدهم جميعًا أصدقاء أوفياء،
أمَّا أنا، فسوف أظل أنظر إليك
على البعد كصديق حميم .

تاسو : أنت تغمر بفضلك يا أمير
إنسانًا يشعر أنه لا يستحقه،
ولا يكاد فى هذه اللحظة يستطيع
أن يعبِّر لك عن شكره .
وبدلاً من أن أقدم لك امتنانى
جئت أرفع إليك التماساً !
أنت تعلم كم أعتز بقصيدى،
لقد بذلت فيه الكثير ولم أبخل عليه
بجهد ولا عناء، ومع ذلك فلم يزل

أبعد بكثير عما أتمناه .

أريد أن أعود تلميذًا من جديد

هناك حيث لا تزال أرواح العباقرة

تطوف فى السماء وتؤثر على القلوب،

فربما تصبح أنشودتى جديرة باستحسانك .

أتوسل إليك أن تعيد إلىّ الأوراق

التى يخجلنى أن أعرف أنها بين يديك .

ألفونس : أتريد اليوم أن تسترد الهدية

التى أعطيتنى فى هذا اليوم نفسه ؟

دعنى أتوسط بينك وبين قصيدك .

حاذر أن تفرط فى الجهد والعمل،

فتؤذى الطبيعة الرقيقة التى تنبض فى أبياتك،

ولا تنصت إلى النصائح التى تنهال عليك من كل

ناحية !

إن آلاف الأفكار التى تصدر عن أناس مختلفين

يناقضون بعضهم فى الرأى والحياة،

يضمها الشاعر الذكى فى كل واحد،

فلا يهاب أن يُغضب القليلين

ما دام سيفوز بالمزيد من رضا الآخرين .

ومع ذلك فلست أريد بهذا أن أقول

إنك لا تحتاج أن تمر عليها فى هدوء،

فتهذب فيها هنا وهناك،
ولذلك أعدك الآن أن أعطيك
نسخة منها بعد وقت قصير .
أما المخطوطة فسأحتفظ بها،
لأستمتع بها مع شقيقاتي .
فإذا رجعت إلينا بنسخة أكمل
فسوف تزيد متعتنا بها
وقد نلفتك إلى بعض الملاحظات
التي نبديها لك كأصدقاء .

تاســـــو : أتوسل إليك من جديد في خشوع :
دعني أحصل على هذه النسخة على وجه السرعة !
إن كياني كله يعيش الآن في هذا القصيد
وإذا قدر له أن يكون شيئًا، فليكن الآن !

ألفــونس : إني أحيي هذه الرغبة التي تملك عليك نفسك !
ومع ذلك، فمن واجبك يا عزيزي تاسو
أن تفرج عن نفسك بقدر ما تستطيع،
وتستمتع بالعالم الواسع قليلاً،
وتأخذ علاجًا ينقي دمك .
هناك يستعيد وجدانك الانسجام الجميل
ويعطيك ما لن تناله بالانفعال الكئيب .

تاســــو : قد يبدو الأمر كذلك يا أميرى
ولكننى بمجرد أن أنكبَّ على عملى
أحس بأننى صحيح معافى،
وأستمد من العمل قوة جديدة .
إنك تعرفنى منذ وقت طويل،
وتعرف أننى أضيق بحياة الفراغ؛
إن الراحة هى آخر ما يريحنى .
وهذا الوجدان، ويا للأسف، لم تهيئه الطبيعة،
ليطفو مرحًا على نهر الأيام
ويسبح فى بحر الزمان الواسع .

ألفـونس : كل ما تفكر فيه أو تفعله،
يغوص بك إلى أعماق نفسك !
كم من هاوية حفرها القدر حولنا؟
لكن أعمقها هنا فى قلبنا!
وهى تجذبنا إلى التردى فيها .
أتوسل إليك أن تنتزع نفسك من نفسك !
وسترى أن ما ستفقده كشاعر ستكسبه كإنسان .

تاســــو : عبثًا أحاول التحكم فى هذا الدافع،
الذى يموج فى صدرى ليلَ نهار .
إننى إن توقفت عن الفكر والإبداع،
لم تعد الحياة فى عينىَّ حياة .

أتستطيع أن تمنع دودة الحرير
من أن تغزل النسيج، الذى يؤدى لموتها ؟
من قلبها تنتزع الخيط النفيس،
فلا تتوقف حتى تغلق الكفن على نفسها .
ليت إلهًا محسنًا ينعم علينا،
بنصيب هذه الدودة، الذى تحسد عليه !
ليتنا نستطيع ذات يوم
أن نفرد الجناحين المشعين
فى وادى الشمس البعيد،
فى بهجة وبغير ميعاد .

ألفـونس : استمع إلىّ ! إننى أرجوك
– وأنت الذى تضاعف للكثيرين بهجة الحياة –
أن تتعلم أنت نفسك، قيمة هذه الحياة
التى أغدقت عليك عطاياها بسخاء .
وداعًا ! وكلما أسرعت بالرجوع
زدتنا فرحة بعودتك .

المشهد الثالث

تاســـو : (وحده) تماسك يا قلبى، فأنت على الدرب الصحيح !
المهمة عسيرة، إنها المرة الأولى
التي تجرب فيها أن تتنكر ولا تخيب .
ها أنت قد سمعت : لم يكن هذا قلبه
ولا الكلمات كما عهدتها كلماته .
لكأنى ما سمعت إلا صوت أنطونيو .
آه كن على حذر ! فسوف تسمعه الآن
يأتيك من كل ناحية . تماسك . تماسك !
لم تبق غير لحظة وتدرك الهدف .
من تعلم التنكر فى أواخر الحياة،
أنقذته سمعته الطيبة من العيون
فتعلَّمْ كيف تحذق فنونهم، وسيتم كل شيء على
ما يرام .
(بعد فترة صمت)
أنت تتباهى بالانتصار قبل الأوان ! ها هى قادمة
هناك !

الأميرة الرقيقة قادمة ! يا له من شعور !

إنها تدخل . والشك والسخط اللذان تجمعا فى قلبى،

يذوبان الآن فى دموع الأحزان .

المشهد الرابع

(الأميرة - تاسو - ثم يدخل الباقون قبل نهاية المشهد)

الأميرة : هل تفكر إذن فى أن تتركنا؟
أم تريد أن تبقى قليلاً فى بلرجواردو
حتى يأتى اليوم الذى ترحل عنا فيه
لفترة قصيرة، كما أتعشم يا تاسو ؟
أتذهب إلى روما ؟

تاسو : سأذهب أولاً إلى هناك،
فإذا أحسن الأصدقاء استقبالى كما أرجو،
فقد أستطيع أن أحشد صبرى وعنايتى،
لأضع اللمسة الأخيرة فى قصيدتى .
سأجد هناك رجالاً كثيرين،
يحق لهم أن يصفوا أنفسهم
بأنهم سادة فى كل الفنون .
ألا ينطق كل مكان فى تلك المدينة العظيمة؟
ألا يتحدث كل حجر إلى قلوبنا؟

وكم من ألف معلم صامت يشير إلينا
إشارة الصديق فى هيبة وجلال ؟!
وإذا لم أستطع أن أكمل قصيدتى هناك
فأين إذن أستطيع أن أكملها ؟
بيد أنى، ويا للأسف، أحس من الآن
أننى لن أنجح فيما سأقدم عليه .
لا شك أننى سأغير فيها، لكننى لن أستطيع إتمامها
إننى أشعر الآن، أشعر بكل وضوح
أن الفن العظيم الذى يغذو الجميع،
وينعش العقل السليم ويقويه،
سوف يدمرنى ويطردنى بعيداً عنه .
أريد أن أهرب ! أريد أن أذهب الساعة إلى نابولى !

الأميرة : وهل يمكنك أن تخاطر بهذا ؟ إن حكم النفى
الذى نزل بك وبأبيك لم يُرفع بعد .

تاسو : أنت على حق فى تحذيرك، ولكننى فكرت فى المسألة .
سأذهب إلى هناك متنكراً،
مرتدياً ثوب الحجاج أو الرعاة المساكين .
سأدخل المدينة خفية،
حيث يضيع الفرد فى زحام الألوف .
سأسرع إلى الشاطئ، حيث أجد هناك
قارباً يركبه أناس طيبون من مدينة سورنت،

وفلاحون عائدون إلى بيوتهم من السوق .
ذلك لأننى لا بد أن أسرع إلى سورنت
فهناك تعيش شقيقتى التى كنت وإياها
بالنسبة لأبوينا كل العذاب والسرور .
سألزم الهدوء فى القارب، وأدلف إلى الشاطئ فى صمت
وأصعد فى حذر على الطريق المؤدى إلى بوابة المدينة
وهناك أسأل : أين تعيش كورنيليا ؟ دلونى على مسكنها
كورنيليا سير سالى ؟
وسأجد غازلة تبتسم لى وتدلنى على البيت والطريق .
وأواصل الصعود . وحولى الأطفال ينظرون مدهوشين
إلى الشعر المضطرب والوجه الغريب الحزين .
وأبلغ العتبة، فأجد الباب مفتوحاً، وأدخل .

الأميرة : افتح عينيك يا تاسو إذا استطعت،
وانظر إلى الخطر الذى تريد أن تهوى فيه .
لولا إشفاقى عليك لسألتك :
أَمِنْ النبل أن تقول هذا الكلام ؟
أَمِنْ النبل ألا تفكر إلاَّ فى نفسك،
وكأنك لا تعذب قلوب الأصدقاء ؟
هل يخفى عليك رأى شقيقى فيك ؟
هل تجهل كيف تقدرك شقيقتاى ؟
ألم تحس بهذا التقدير وتتأكد منه ؟

هل يتغير كل شيء في لحظات قليلة ؟

تاسو ! إن كنت تريد أن تفارقنا

فلا تترك لنا الألم والعذاب .

تاســـو : (يشيح بوجهه بعيداً) .

الأمـيـرة : كم يعزى النفس حين يرحل صديق

في رحلة قصيرة، أن نقدم له هدية صغيرة

ولتكن معطفاً جديداً وسلاحاً !

أما أنت فلا يستطيع الإنسان أن يهديك شيئاً

لأنك تطرح عنك كل ما تملكه في نفور .

إنك تختار عباءة الحجاج وبردتهم السوداء

وعكازهم الطويل، وتتعمد أن تذهب إلى هناك

في زي المساكين، وتسلب منا

ما لم تكن لتتمتع به إلا معنا .

تاســـو : إذن فأنت لا تنبذينني تماماً ؟

يا للكلمة العذبة، يا للعزاء الغالي الجميل !

دافعي عني ! خذيني في حماك !

دعيني هنا في بلرجواردو، أو انقليني إلى كونساندولي

أو إلى حيث تشائين !

ألا يملك الأمير من القصور الجميلة والبساتين

ما يحتاج إلى العناية طوال العام

ولا تكادون تقيمون فيه يوماً واحداً أو ساعة واحدة ؟

اختارى أبعدها جميعًا، ذلك الذى لم تزوريه منذ
سنوات،
وقد يكون الآن مهجورًا، وأرسلينى إلى هناك !
دعينى هناك أهب حياتى كلها لكم !
كم أتمنى أن أتعهد أشجارك !
وأغطى فى الخريف أشجار الليمون بالألواح والقرميد
وألفها بعناية بأعواد القصب !
ستمد الأزهار الجميلة جذورها العريضة فى الأحواض
وسيبدو كل ممشى وكل خلوة فى أبهى زينة .
واتركىَ لى كذلك العناية بالقصر !
سأفتح النوافذ فى الوقت المناسب،
فلا تفسد الرطوبة اللوحات؛
والجدران المزدانة بمعجون المرمر،
سأنظفها بالريش الخفيف،
وستلمع الأرضية الخشبية وتتألق،
ولا يتزحزح حجر أو طوبة عن مكانهما،
ولا ينبت عشب فى أحد الشقوق !

الأميرة : لست أجد فى عقلى رأيًا
ولا فى قلبى عزاءً لك أو لنا .
إن عينىّ تتلفتان حولى، لعل إلهًا
يمد إلينا يد المساعدة،

أو يدلنا على بلسم أو نبات شافٍ،

ينزل السلام على نفسك ويهدئ نفوسنا .

إن أخلص الكلمات التى تخرج من الشفاه،

وهى الدواء الساحر، لم يعد لها تأثير .

لا بد أن أتركك تسافر،

ولكن قلبى لا يستطيع أن يهجرك .

تاســـو : أيتها الآلهة ! إنها هى

التى تتكلم معك وتعطف على بؤسك !

ومع ذلك أسأت فى فهم القلب النبيل ؟

كيف استولى الضعف عليك،

وكيف قهرك اليأس وأنت منها قريب .؟

لا لا ! إنها هى ! وأنت أيضاً قد ولدت من جديد .

تكلمى تكلمى ودعينى أستمد

من بين شفتيك الأمل والعزاء !

لا تحرمينى من نصيحتك ! قولى : ماذا أفعل ؟

لكى ينعم شقيقك بالعفو علىّ،

ولكى أكون جديراً بعفوك،

ولكى يسعدكم من جديد

أن تعدونى واحداً منكم

قولى لى !

الأميرة : إن ما نطلبه منك قليل،

ومع ذلك يبدو أكثر من الكثير .

يكفيك أن تترك نفسك لنا، وتطمئن لمودتنا .

نحن لا نريد منك إلا ما فى طاقتك،

إذا استطعت فحسب، أن ترضى عن نفسك .

أنت تسعدنا، حين تكون سعيداً

وتؤلم قلوبنا حين تهرب من السعادة .

وإذا كنت تجعلنا نفقد الصبر أحياناً

فلأننا نتمنى أن نساعدك، ونرى، ويا للأسف،

أن كل مساعدة لا جدوى منها،

ما دمت لا تريد أن تمسك بيد الصديق

التى تمتد إليك فى شوق ولا تصل إليك .

تاســو : ما زلت أنت التى رأيتها أول مرة

حين أقبلت علىّ كالملاك الطاهر !

اغفرى للبشر الفانى نظرته،

التى غشيت لحظات فلم تعرفك،

إنها تراك الآن ! وروحى كلها تتفتح،

لتعبدك أنت وحدك إلى الأبد،

والقلب يفيض كله بالحنان

إنها هى . أراها أمامى . يا له من شعور!

أهى الحيرة التى تدفعنى إليك؟

أهو الجنون ؟ أم حس عال
ينتشى بالحقيقة السامية الصافية ؟
نعم ! إنها العاطفة التى تستطيع وحدها
أن تهبنى السعادة على هذه الأرض .
وهى وحدها التى قدرت شقائى،
حين قاومتها وأردت أن أنفيها من القلب .
هذه العاطفة هى التى حاولت أن أحاربها،
وصارعت وصارعت صميم كيانى
وهدمت فى غضبى الأحمق ذاتى،
التى عرفت أنك لها وحدها .

الأمـيـرة : تاسو ! إن كنت حريصًا على أن أسمعك،
فكفكف هذا اللهب الذى يفزعنى .

تـاســـو : هل تمنع حافة الكأس النبيذ
من أن يطفح ويزيد ويفور ؟
كل كلمة منك تزيد سعادتى،
ومع كل كلمة تتألق عيناك .
أحس أننى تغيرت فى أعماقى
وأننى تخلصت من كل همومى وأعبائى
وأصبحت حرًا كإله، وكل هذا بفضلك !
القوة الغامضة التى تتحكم فى حياتى
تتدفق من شفتيك . نعم ! أنت تملكين وجودى .

لم يعد لى شىء أملكه من نفسى .

عينى تعشى فى وميض السعادة والنور،

وجدانى يترنح ويضطرب . ساقى ترتعش .

أنت تشدينني نحوك فلا أملك أن أقاوم،

أو أمنع قلبى الذى يندفع إليك .

ملكتنى إلى الأبد بين يديك

فخذى وجودى كله إليك !

(يلقى نفسه بين ذراعيها ويضمها بشدة إلى صدره)

الأميرة : (تدفعه عنها وتبتعد بسرعة) : ابتعد !

ليونورا : (التى ظهرت منذ قليل فى مؤخرة المسرح تسرع مقبلة) :

ماذا حدث ؟ تاسو ! تاسو !

(تتبع الأميرة)

تاسو : (الذى يريد أن يتبعهما) : آه يا إلهى !

ألفونس : (الذى اقترب منذ قليل مع أنطونيو) :

لقد جن جنونه ! أوقفوه ! (يخرج)

المشهد الخامس

(تاسو - أنطونيو)

أنطونيو : أنت يا من تعتقد دائمًا أن الأعداء يحيطون بك
كم يحس العدو بالانتصار لو رآك الآن !
أيها الشقى ! إننى لا أكاد أفيق من ذهولى !
عندما نفاجأ بشىء لم نكن نتوقعه،
عندما تقع أنظارنا على شىء رهيب
يتوقف العقل لحظة كالمشلول :
ولا نجد وصفًا لهذا الشىء المجهول .

تاســـو : (بعد فترة صمت طويلة) :
أتمم مهمتك - إنى أراك الآن على حقيقتك !
نعم ! إنك تستحق ثقة الأمير فيك
أتمم وظيفتك ! استمر فى تعذيبى !
انكسرت عصاى فعذبنى فى بطء حتى أموت !
اغرز ! اغرز السهم حتى أحس بالكُلاَّب
يغوص فى لحمى ويمزقنى !

أنت أداة طيعة في يد الطاغية؛
كن السجان وكن الجلاد
فكلاهما يليق بك !
(يدير وجهه ناحية المشهد)
نعم ! استمر أيها الطاغية !
لم تستطع أن تلبس القناع للنهاية، انتصر !
عرفت كيف تقيد العبد بالأغلال،
وكيف تدخره لعذاب أفظع :
استمر فى عملك، فإننى أكرهك
وأحس بالبشاعة التى تثيرها فى نفسى
القوة المستبدة التى تفتك بالأبرياء
(بعد فترة صمت)
وهكذا أرانى فى نهاية المطاف
طريدًا منفيًا كأننى شحاذ !
لم يتوجوا رأسى إلا ليزينوا
الضحية التى يقدمونها إلى المذبح .
هكذا جردونى فى يومى الأخير
بألفاظهم المعسولة من كنزى الوحيد،
من قصيدى الذى لن يردوه إلىَّ !
من ملكى الوحيد الذى كان ممكنًا
أن يضمن لى الحفاوة فى كل مكان

أزوره ويحمينى من الجوع !
الآن أرى لماذا أردتم لى أن أستريح .
إنها مؤامرة، وأنت رأس المتآمرين :
لكى تبقى قصيدتى إلى الأبد ناقصة
لتحرموا اسمى من المجد والشهرة
ليجد حسادى ألف عيب يأخذونه علىّ
ولأسقط أخيرًا فى هوة النسيان .
ألهذا أردتم لى الراحة والفراغ ؟
ألهذا دعوتموننى لأحفظ نفسى وأدخر قواى ؟
يا للمحبة الصادقة ! يا للعناية الرءوم !
كنت أتخيل بشاعة المؤامرة
التى تحاك لى بلا هوادة فى الظلام،
وها هو الواقع أبشع من كل خيال !

***

وأنت أيتها الساحرة الخئون !
يا من جذبتنى برقة السماء
ها أنا ذا أراك الآن على حقيقتك !
يا إلهى ! لماذا لم تُفتح عيناى قبل الآن !

***

بيد أننا نحب أن نخدع أنفسنا بأنفسنا
ونكرم كل نذل دنىء يكرمنا .
إن الناس يجهلون بعضهم البعض؛
أما عبيد الحرب الذين يجلسون لاهثين مغلولين على
مقعد واحد،
فأولئك هم الذين يعرفون بعضهم البعض؛
وحيث لايطلب أحد من صاحبه شيئًا،
ولا يخشى أن يفقد شيئًا،
وحيث يكشف كل واحد عن خبثه،
ولا ينتظر من جاره إلا الخبث،
فأولئك يعرف بعضهم البعض .
لكننا لا نجامل غيرنا حين نخدع أنفسنا فيهم،
إلا لكى يكون من حقنا أن نطلب منهم المجاملة نفسها .

***

صنمك الذى عبدته كل هذا الزمن
كان يحجب عن المرأة اللعوب .
سقط القناع، وأرى الآن أرميد
عارية من كل سحرها – نعم ! أنت هى !
وكم تغنت قصيدتى بهذه الأحاسيس !

***

والوسيطة الصغيرة الماكرة
كم سقطت الآن من عينى !
ما زلت أسمع حفيف خطواتها الناعمة حولى
وأعرف الآن الهدف من دسها وكيدها .
إننى أعرفكم الآن جميعًا ! ويكفينى هذا !
وإذا سلبنى حظى الشقى من كل شىء
فسأعرف فضله علىّ إذ كشف لى الحقيقة .

أنطونيو : إننى أسمعك يا تاسو فى ذهول
بالرغم من علمى أن عقلك المندفع
يتذبذب فى سهولة من طرف إلى طرف .
عد إلى نفسك ! تحكم فى هذا الغضب !
إنك تجدف من كلمة إلى كلمة،
وتأتى ذنوبًا إن غفرتها لك آلامك،
فلن تغفرها لنفسك أبدًا .

تاســـو : آه لا تخاطبنى بكل هذه الرقة، ولا تحاول
أن تعيد إلىّ الهدوء بكلماتك العاقلة !
دعنى أتمتع بلذة الجنون الكئيبة
لكى لا أعود إلى عقلى لحظة فأفقده .
أحس فى أعماقى أن هيكلى تهشم،
ولست أعيش إلا لأجل هذا الإحساس .
اليأس يقبض علىّ بكل قسوته،

وفى جحيم العذاب الذى يفنينى
لا يكون التجديف إلا شكوى ضعيفة .
أريد أن أرحل ! فإن كنت صادقًا
فاثبت لى هذا، ودعنى أفر فى هذه اللحظة !

أنطونيو : لن أتخلى عنك فى هذه الشدة؛
وإذا كنت قد فقدت التحكم فى نفسك،
فإنى لن أفقد الصبر معك .

تاسو : أعلىّ إذن أن أستسلم لك ؟
ها أنا قد سلمت، وتم الأمر :
لن أقاوم، وها أنا قد استرحت –
ودعنى أكرر الآن فى ألمٍ،
كم كان جميلاً ما أضعته من يدىَّ .
ها هم قد ابتعدوا – يا إلهى !
إنى أرى الغبار الذى يرتفع خلف عرباتهم .
الفرسان فى المقدمة . إنهم يسيرون
على الطريق نفسه، الذى جئت منه .
إنهم يرحلون غاضبين علىّ
لو أننى استطعت أن أقبل يده !
لو أننى استطعت أن أودعه
وأقول له للمرة الأخيرة : اعف عنى !
وأسمعه يقول : اذهب فقد عفوت عنك !

لكننى لا أسمعها منه ولن أسمعها أبداً .

أريد أن أذهب إليه ! دعونى أودعه

ولا أطلب شيئًا غير هذا الوداع !

أعطونى ! آه أعطونى هذه اللحظة مرة واحدة !

فربما شفيت . لا . إننى طريد . إننى منفى .

أنا الذى نفيت نفسى بنفسى .

لن أسمع هذا الصوت أبداً .

لن ألاقى هذه النظرة أبداً .

أنطونيو : حاول أن تنصت إلى صوت رجل،

لا يستطيع أن يسمعك بغير تأثر !

لست شقياً إلى الحد الذى تظن

تمالك نفسك ! جرب أن تقاومها !

تاسو : هل بلغت من البؤس ما يبدو علىّ ؟

هل بلغت من الضعف ما يظهر لك ؟

هل ضاع إذن كل شىء ؟

هل زلزل الألم بنيانى،

وحوّله إلى ركام من الأنقاض ؟

ألم تبق لدى موهبة تحمينى وتقدم لى ألف عزاء ؟

هل انطفأت كل القوة التى كانت تجيش فى صدرى ؟

هل أصبحت عدماً ؟ هل فنى وجودى ؟

لا ! إن كل شىء كما هو، لكننى أصبحت عدماً .

لقد تخليت عن نفسي وتخلت عني .

أنطونيو : إذا ظننت أنك قد فقدت كل شيء

فقارن نفسك بغيرك، واعرف من أنت !

تاســـو : أجل ! إنك تذكرني بنفسي في اللحظة المناسبة ! -

ألم يبق لي مَثَلٌ أعْلَى، أستمده من التاريخ ؟

ألا يتمثل لي بطل، تعذب أكثر مما تعذبت

فأتماسك حين أقارن نفسي به ؟

لا ! لقد ذهب الجميع ! ولم يبق لي سوى شيء

واحد :

الدمعة التي أهدتها لنا الطبيعة، وصرخة الألم

التي يطلقها الإنسان حين يعجز عن الاحتمال .

وأنا الذي احتفظت بهذا الهدية السامية -

تركت لي في الألم اللحن والخطاب،

لأشكو همومي كلها في نشيدي :

وإذا ما أخرس الإنسان عذابه

وهبني الرب أن أعبِّر عن عذابي

(أنطونيو يتقدم نحوه ويتناول يده) :

تاســـو : آه أيها الصديق النبيل ! إنك تقف ثابتًا وهادئًا

بينما أبدو كالموجة التي تتقاذفها العاصفة .

ولكن تريث ولا تغتر بقوتك !

فالطبيعة الجبارة التي بنت هذه الصخرة الراسخة،

قد أعطت الموجة القدرة على الحركة .

إنها ترسل عواصفها، فتفر الموجة

وتتأرجح وتنتفخ وتثور مزبدة .

على هذه الموجة كان ينعكس ضياء الشمس الجميل،

وفوق هذا الصدر الذى تحركه نسمة خفيفة

كانت تستريح النجوم .

الآن اختفى الضياء، وتبددت الراحة .

لم أعد أعرف نفسى فى وسط الأخطار

ولا عدت أشعر بالخجل من هذا الاعتراف .

انكسر المجداف، وبدأت السفينة تتحطم من

ناحية .

والأرض راحت تَنْشَقُّ تحت قدمى !

ها أنا ذا أمسك يديك، وأضمك بذراعىَّ

كما يتشبث الملاح فى النهاية

بالصخرة التى سيتحطم عليها .

تمـــت

التصحيح اللغـوى : **عزت سلامة**

الإشـــراف الفنـــى : **حسن كامل**

يوهان ڤولفجانج جوته

تاسو

ترجمة وتقديم : عبدالغفار مكاوى

ماذا نقول عن هذه القصيدة الطويلة الحزينة التى نسميها تاسو؟ أهى دراما أم مأساة، أهى قديمة أم حديثة؟ إننا نحار أمام هذا النسيج الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يحدث فيه شىء، ومع ذلك فكأن الضرورة هى التى نسجت خيوطه، ونعيش فى عالمه الأنيق الجميل ومع ذلك يترك فى نفوسنا شيئًا يشبه الفزع الذى تتركه فينا المآسى الإغريقية حين تشعرنا بقسوة القدر الظالم المجهول. كيف يمكن أن تكشف هذه الحياة المنمقة الزاهية عن هوة من الحزن بلا قرار.

Bibliotheca Alexandrina
0750002

تصميم الغلاف : محمود الهندى